2011

الأهوار ...حلم الأساطير ...
ودمعة جنوب الله .....!

نعيم عبد مهلهل

المانيا / 2011

الفصل الأول ...الحياة المبتلاة بوهم الفردوس ..الأهوار

...(في اليوم الذي وزعت فيه الأنصبة كانت الحصة المخصصة لي العذاب والألم)
من كتاب ألواح سومر لصومائيل كريمر /شاعر سومري مجهول

ليس هناك أعذب وأجمل مما يمنحه الماء لنا من خيال ، فهو يطفو بنا أينما نريد ، حتى الى أمكنة الفردوس)
(وحدائقه ، وبالرغم من هذا ليس للماء السنة تقول وداعاً لكل من على الضفاف

الروائي البرازيلي أستورياس

على الأرض ، كانت رغبة النبي الأول أن يكونَ مهبطهُ قرب ساقية ماء ، فلبى طلبه وأنزلَ (ع)يوم أنزل الله آدم قرب ملتقى نهرين يهبطان من شمال الأرض الى جنوبها ، دجلة والفرات اللذين يشكلان ذاكرة التحضر لكل ذرة تراب فوق هذه الأرض ، وقد أستوطن على ضفافهما مختلف الأقوام والحضارات والممالك والعشائر وانتهاءً بمترنحي الليل وعشاق الهوى ، الجميع أخذوا من النهرين كلمة الوجود وصنعوا منها حياتهم وعاشوا على حب الله والماء اخوة من مذاهب واثنيات واعراق مختلفة حتى إن دجلة والفرات لملما أطراف الثوب العراقي بإصرار وعناد بالرغم من الريح الغريبة التي كانت تمزق أطراف هذا الثوب في غزواتها التاريخية العديدة ، وعلى ضفاف هل لي أملٌ بالانحدار جنوب بابل لأجد الآلهة) :الفرات وقف الإسكندر المقدوني واطلق آهة أوصلته الى المنية ، وربما كان المقدوني يبحث عن مغامرة مشابهة الى (التي صنعت من جنائن الماء خلودها وحروف الكتابة مغامرة ملك اوروك جلجامش ، التي قد يكون قد قرأها في ترجمتها البابلية على واحد من رفوف مكتبات معابد الإله مردوخ ، وجلجامش كان أبن القصب والماء ، يعني أنه إبن الأهوار ، وحتماً كان يجيد صناعة القارب ليصل ربما أبعد مما وصل إليه الإسكندر حتى لو في حدود الخيال فقط ، (المردي)المطلي بالقير وكان يجيد دفع وهذا ربما هو ماشد الملك المقدوني ليحذو حذو جلجامش ، لأن البطل السومري كان يتحدث عن خلود وفردوس وأبد لاينتهي بظلمة قبر وجسد ينخره الدود وهو ما كان وما زال يرهب ويقض جميع مضاجع الأباطرة والملوك ...ورؤساء الجمهوريات والأثرياء من أعضاء البرلمانات ومجالس الشيوخ
كانت سهول وادي الرافدين مكاناً مثالياً لصناعة البؤر الحضارية المختلفة ، وكانت منطقة جذب مغرية لكل أولئك الباحثين عن الدفء والغذاء والاستقرار لهذا تعاقبت عليها الدويلات والسلالات ذات العروق والانتماءات المختلفة ، كل هذه المفاصل دفعت هذا الوعي لكشف الجديد ، فكانت المناغاة ، وكان الطين ، وكان اللوح ، وكان الحرف ، وكانت الكلمة التي صنع العراقيون منها تأريخهم الذي تلونت فيه أشكال وجود لم تستقر فيه حال أبداً ، بل كانت خطوطه البيانية تصعد وتنزل وفقَ إرادات خضع لها العراقي بفعل فطرته وطيبته ، إرادات تربع عليها الملوك والأمراء والإقطاعيون ، فكانت الحضارة العراقية التي شهت نموها الكوني مخالطة طوب الطين بنصل السيف ، .ولهذا نرى في صورة الإبداع النحتي للملاحم مشاهد غزو وموت واسود تنهش عبيداً
ولدت الكلمة مع ولادة الحرف والتطور الذي صاحب نشأته من الشكل الصوري إلى الشكل التعبيري الذي ظل معنا .حتى الساعة
كان الحرف المسماري يمثل ذائقة مكتشفة لحاجة كبيرة هيأت للمجتمع العراقي البدائي مراحل حضارية مختلفة صاحبها الكثير من المتغيرات الكبيرة والهائلة والتي كان الطوفان أكثرها تأثيراً في هذا المتغير والذي صنع مع نفاد .تأثيره مكانا بيئياً صالحا لهكذا نمط من الحياة الحضارية التي يطلق عليها حضارة القصب والطين
شكل القصب ذاكرة المعمار الأول لصناعة الظل الذي نقل الإنسان من العراء إلى السقف وليغادر والى الأبد حياة العراء ، وكان الأداة الأولى التي دافع فيها عن نفسه ضد الحيوانات الكاسرة والمتطفلين قبل أن يتعلم التعدين ويحول الحديد إلى سيف وسكين ومعهما تبدأ الحروب ويبدأ الضجيج والفوضى حتى وهو يؤسس من بقايا المياه التي خلفها الطوفان المدن والقرى والممالك البدائية في عصور جاءت بعد الانكماش الجليدي والبدائية الحجرية ليأتي القصب ومنه يصنع أول أداة للكتابة وهو القلم الذي سير حافته المدببة على لوح الطين الرطب ليكتب أول

الحروف التي حملت معنى هاجسه الأول وعبرت عن رغبةٍ مكبوتة ربما أولها كانت مشاعر حب ومودة تجاه أنثى ما.

خلفت حضارة القصب الرافدينية مجدا هائلا من المنجز الذي أورث المتعاقب من الزمن تراثاً رؤيوياً ومادياً وفكرياً مهد لولادة حضارات عظيمة أخرى كالبابلية والأكدية والآشورية ، وكان تأثيرها ممتدا إلى جهات كثيرة من العالم بفضل تأسيس قاعدة للتجارة مع الأبعد كما كان يمارسه السومريون بناة حضارة القصب الأوائل مع الشعوب الهندية والأقوام الفارسية وتلك التي سكنت الخليج العربي وكان لهم أيضا صلات تجارية مع آسيا الوسطى وربما ابعد من ذلك.

وعلى مدى عقود طويلة عاشت حضارة القصب والطين وازدهرت فيها حواضر وممالك كانت في ذلك الزمن تمثل)نقطة المدن على الأرض ومحطة لبعث الرسل والأنبياء ، من آدم ومرورا بنوح وإبراهيم ولوط وأيوب ويونس وغيرهم من الذين حملوا شمعة التبشير ليقاوموا ما أسس عليه الإنسان من رؤى في طرائق التعبد (عليهم السلام ، عندما حطم آلهة أور بفأسه وليثبت لقومه أنها مجرد أحجار ودمى لا تنطق ولا (ع)والإيمان كما فعل إبراهيم ...تفعل شيء

لا تؤرشف الألواح تواريخ الأنبياء بصورة واضحة ودقيقة مثلما فعلت الكتب السماوية ، ولكن اللوح أرّخ لتفاصيل الحياة بكل مفاصلها حتى الروحي والديني منها ، ولكنه في هذا الجانب كان يؤرخ عبادات غير تلك التي أنزلت بواسطة الرسل والأنبياء ، وهذا لا يعني أن هذه الأمم والشعوب لم تنتبه إلى هدي هذه الكتب ، بل لأن تلك الألواح أرخت تواريخ كان فيها الإنسان يؤمن بالشرك والحجر وآلهة مسماة من قبله يعتقد إنها المخلصة ، وكان لكل شعب وبالرغم من هذا خلق هذا التنوع في اختيار وصناعة الآلهة أفاقاً واسعة للاكتشاف ..ألهته ، بل ولكل مدينة ألهتها والأبداع والتطور في كل الميادين ، وما تم كشفه في أقبية مقبرة أور المقدسة من قبل العلامة ليوناردو وولي في يكشف لنا عن مدى التطور والرقي الذي وصلت له الحضارة السومرية في زمن سلالة أور الثالثة بدءاً 1920عام من الموسيقى وانتهاء بدقة وروعة المصوغات الذهبية وما خلفته هذه السلالة من ألواح تشريع لملوكها وأهمها فيما كان ابنه شولكي من امهر العازفين والمؤلفين .شريعة مؤسس هذه السلالة الملك السومري أور ــ نمو ..الموسيقيين وكان كاهناً وشاعراً أيضاً

صنع القصب وعياً مفتوحاً للذاكرة العراقية ، وشكل مع الطين ثنائياً أزلياً في محاولة العراقي لتطوير حياته وبيئته في الجانب الفكري والمعماري ، وكانت بيوت القصب التي مازالت شاخصة حتى هذا اليوم في قرى ومدن الأهوار ، .هي ذاتها من اتخذها العراقيون الأوائل أمكنة للسكن وللتعبد ولبناء سلالاتهم المجيدة

كان الطين يرتبط بالخلق العراقي الرافديني من خلال خلق الله البشرَ ، لهذا فهو يرتبط بالوجود الحضاري والأزلي للإنسان أكثر من أي عنصر آخر ويشاركه الماء في هذا الامتياز ، لنتجاوز مسمى حضارة القصب والطين فنقول .الحضارة العراقية هي حضارة الطين والماء والقصب

وتكلم آدم فأنتج لنا البشرية ، وتكلمت البشرية فأنتجت لنا التأريخ ، وتكلم .. .تكلم الطين فأنتج لنا آدم عليه السلام ..التأريخ فأنتج لنا العبر والتجارب

هذه البديهة هي نتاج هذا الاختيار الذي وقع على هذه البقعة من الكون لتكون موطن البدء الحلم والهاجس وهندسة الحرف ، ومن الحرف كانت المعرفة ، ومن المعرفة كانت الحياة الجديدة التي كان الطين واحداً من أسس نشأتها وتطورها ، الذي حمل كل اشتغال البشر وإحساسهم بالوجود وفعالياتهم التي يكاد يكون فيها البناء وطقوس العبادة .والحرب والزراعة هي أهم ما كان الإنسان العراقي الأول يعيه ويمارسه

وعلى أديم شواطئها كتبت تفاصيل الدهشة الكونية .العناصر الثلاثة امتزجت في وحدة صلبة وصنعت هذه الخارطة .من قصيدة الشعر إلى سند شراء العبد وحتى الملحمة .الأولى

تدوين يؤرخ الفعل والحديث ، فكانت يوميات القرية والمدينة والمعبد ترينا سيراً ينبض بالفعل الجاد والعمل الدووب .الذي رافق الإنسان الرافديني منذ صوت مطرقة الحداد ومروراً بمحراث الزراعة وانتهاء بسيف المعركة ،

وقائع تتلوها أخرى أراد فيها الإنسان أن يثبت رقي انتمائه وتحوله من برية اللامعنى إلى مدنية الكلام والعاطفة وهذا ما بدا تأثيره واضحاً في جميع المدونات التي كتبها بقلم القصب على الطين الرطب والتي تحكي .والحب تفاصيل مدهشة عن أحاسيس الفرح والحزن والخلود وطاعة الملك وافتراس العدو في ساحة المعركة وشرائع النكاح والخيانة الزوجية والبيع بالمقايضة وأسلوب الرسائل المتبادلة بين العاشق وعشيقته وبين الإنسان وآلهته .وبين الملك وولاته

دون العراقيون خليقتهم الأولى بأنتظام واستعانوا بالحرف الذي اكتشفوه ليسجلوا هذه الوقائع وفق المرئي .والمتخيل

المرئي هو ماسجلته يومياتهم والمراسيم وتواريخ الملوك والأحداث وحروب المدن والسلالات وطقوس الأعياد

.والمناسبات ، والمتخيل هو أساطيرهم والملاحم والتعاويذ ونصوص التودد إلى الآلهة وطلب رضاها والمغفرة
وبين هذين الهاجسين تعاقبت أجيال وعاشت السلالات والممالك والأمبراطوريات تبني مجدها وحضاراتها وفق ما اكتسبت شعوبها من أرث وتقاليد وثقافة ليختلط في تلك الأمم أهم فعلين حضاريين ظلا يلتصقان في حياة الشعوب ويبدو أن أقتران التدوين في الحرب ظل لصيقاً تاريخياً .والأمم حتى يومنا هذا ،هما هاجس التدوين وهاجس الحرب وملازماً زمنياً أنتجا هذا الكم الهائل من التراث والشواهد مثل المسلات والرقم وأسفار حياة الشعوب التي كانت لا كما فعل ملوك سومر واشور وبابل وغيرهم من الشعوب العراقية .تكتب جيداً إلا عندما تنتهي معاركها المصيرية التي سكنت هذه البلاد منذ خليقة الطين وحتى اكتشاف المعادن مثل الحديد وغيره التي ساهمت في دفع المنتج الحضاري وتطوره ومنها صناعة ادوات الفلاحة ومصوغات الذهب والفضة ومكاييل البيع والشراء وأسلحة الحروب والأواني النذرية والطبخ وغيرها من مستلزمات الحياة ، وكل هذه الفعاليات كانت أرض مابين النهرين هي .مكانها المزدهر والأزلي
وكانت المنطقة التي غمرت بالفيضان الموسمي للنهرين والتي تسمى الأهوار هي الحضارة الأولى للتجمعات المدنية في العراق بعدما كانت الحياة المدنية في الشمال تقترب من حياة الكهوف والمجمعات الطينية الصغيرة ، ويبدو أن الوعي العراقي في أزله بدأ جنوبياً عندما أكتشفت اوروك صورة الحرف ومفهومه ، وكان للقصب النابت بكثافة في المياه الضحلة دورٌ كبيرٌ في تطوير شكل الحرف ورسمه ، وعندما ولد الحرف هناك ولدت معه الأفكار والمدونات وما كان يشغل بال الأنسان من أن النهاية لن تكون مجرد هيكلٍ عظميٍ في العدم بل أن الخلود الآخر .موجود في مكان ما ، بعض المدونات افترضته سماوياً ، والآخر أفترضه أرضياً كما في جنة دلمون
أعتقد أن المكان وجماله وأتساع مدى المسطحات التي فيه أضافت الى الثروة الطبيعية ،الحيوانية منها والنباتية والدفء الدائم أعطى للمكان خصوصية ان يتعلق فيه الإنسان الأول ويضيف اليه الكثير من الهالات المؤسطرة والحقيقية ولتجعله مكاناً مقدساً ينظر اليه بكثير من الرهبة والتأمل والتطلع ، ولهذا كانت أدبيات وأساطير الأنسان الأول تبني موضوعاتها على هذه المكونات ، كما في حلم الملك كوديا الذي يعد أول الأحلام التي كان فيها مؤشر الأمر يراد منه خدمة الآخرين كما في إشارة التبليغ السماوي للأنبياء والرسل عندما حلم بأمر الآلهة أن يذهب إلى .عمق الأهوار ليجلب القصب ويبني معبداً لها
وفي أسطورة التحدي الأولى التي أراد فيها الإنسان أن يصبح نداً لآلهة الفردوس وهي أسطورة آدابا ، الذي كان صيادا للسمك ، وهي واحدة من أهم وأشهر مهن سكان الأهوار ، وهذا يعني إن آدابا كان رجلا اهوارياً ،ورؤى تخيل الفردوس ورغبته فيه سكنته قبل غيره من سكان البيئات الأخرى في وادي الرافدين ، حيث لم تذكر لنا الأدبيات القادمة من أشور وبابل عن هاجس البحث عن الخلود سوى ما نقلوه هم وورثوه من الآداب السومرية التي عاشت سلالاتها في عمق الأهوار وعلى ضفافه ، والكثير من الجداريات ترينا طبيعة ما كان موجوداً ويعاش في هذه البيئة من صور ونحوت لأسراب الطيور والسمك والعربات التي تجرها الجواميس وبيوت القصب ، حتى اكتشف علمياً أن شكل المضيف العربي الذي يبنى في الأهوار من مادة القصب والمتميز في بوابته وشكله المحدودب ما هو إلا شكلٌ متوارثٌ من بيوت أهل الأهوار من السومريين الذين كانوا يعيشون هناك ويتخيلون فراديسهم وحياتهم مثلما تعكسها عليهم رؤى الطبيعة وبيئتها وليظل هذا الفردوس واحدا من صفات التشبث بالمكان والالتصاق به بالرغم من الظروف القاهرة التي عاشها أبناء هذه المناطق بدءاً من الغزوات الأجنبية التي قادها الفرس والعثمانيون والإنكليز وانتهاء بمؤثرات الحروب الحديثة ومشاريع التجفيف ودفع سكان هذه المناطق للهجرة والابتعاد عن مواطن سكناهم ، فكانت هذه العملية كمن يخرج السمكة من شاطئها ويريد لها أن غير أن المكان وكما عهدته التواريخ ظل مرتبطاً بذاته البشرية والجغرافية ، وعاش رغم ظمأ .تعيش بعيداً عنه الأنهر والسواقي في ممكن الحياة البسيطة وتحولت تلك المسطحات الى مشاريع لزراعة موسمية للحنطة والشعير التي كانت تشكل مجتمعات (الأيشنات)لم يكتب لها النجاح في الكثير من مفاصلها ، اختفت بشكل تدريجي تلك سكانية صغيرة داخل المياه ، فيما اختفت بعض أزليات الطبيعة التي كانت تشهد مواسم تجمعات الطير القادم من أمكنة بعيدة حيث مثلت الأهوار مشاتي آمنة للكثير من طيور المناطق الأوربية الباردة مثل الإوز والسنونو وبعضها يأتي بهجرات منتظمة من الصين ومناطق جنوب شرق آسيا مثل البط والحذاف والكراكي ودجاج الماء .وغيره من الطيور
هذا المفترض كما في الأخيلة العراقية القديمة فاشتغلت عليه ومنذ سنوات الكثير من الأفكار والخطط والمشاريع والمزايدات ، وظهرت على هامش المكان الكثير من منظمات المجتمع المدني والمؤسسات والتجمعات البيئية والشعبية ، تدافع عن المكان وخاصيته وضرورة تطويره وعقدت عشرات المؤتمرات والندوات ، وصارت لافتة أحياء بيئة الأهوار لافتة عريضة لمن يحب المكان ويحرص بنفس غيور ووطني على تقديم المقترحات والعون والكشوفات ، وآخرون يريدونه واجهة للكسب والإثراء والإيفاد ، وبدأ الصراع الخفي بين المؤسسات الحكومية

المسؤولة عن تطوير المكان وبين جهات أخرى لها الكثير من المصالح والأجندات تجاه المكان ومنها أجندات حزبية واخرى عشائرية وربما هناك من يحاول التأثير في المكان حتى من خارج الحدود ، وكان دائما يقال أن الأمم المتحدة ومنظمة اليونسكو ومنظمات عالمية اخرى كانت تسعى قبل تغير النظام الى إعادة المكان الى سابق عصره ، ولكنها اليوم لاتفعل شيئاً سوى بعض الخطوات الصغيرة على شكل مؤتمر سنوي او نداء او خطط مستقبلية ، وربما وزارة الموارد المائية وحدها من يتحمل العبء الأكبر في محاولتها لأعمار المكان وتطويره، لكنها ايضا تعمل في حدود امكانية موازنة خطة اعمار الأهوار وهذه الموازنة معرضة للكثير من ضغوط الفساد الاداري وضعف كفاءة المقاول والمنفذ والضغوط الأخرى التي تتعرض لها من جهات حزبية وعشائرية وغيرها. وكنت في أكثر من مناسبة قد تحدثت وحاورت السيد وزير الموارد المائية في هذا الجانب وشاهدت عن قرب مشاريعه وخططه ومنجزه ، ولكني أيضاً لمست الى جانب الحرص الكبير من الرجل أن روح التنفيذ عند من تحال اليهم تلك المشاريع والرؤى لتنفذ يقعون في خانة بعض بيروقراطية ومزاج ونفسية المستشارين عندما شاهدت في واحدة من هذه المفاصل طبيعة تعامل احدهم ، وهو يتصرف على هذا النحو مستنداً الى عصبيته القومية والحزبية وغير ذلك من امور كنت اعتقد ومازلت انها سببٌ في التأخير للكثير من المشاريع والطموحات التي يسعى اليها الوزير ، ثم هناك عامل آخر ساهم في تعطيل الكثير من المشاريع التنموية لعالم الأهوار هو انخفاض وقلة مناسيب المياه القادمة من أعلى النهرين حيث ينبع النهران من تركيا ويمر احدهما بالاراضي السورية وكلتا الدولتين اقامت السدود والخزانات لتطوير بنيتها الزراعية او استخدامها كورقة ضغط مما ادى الى ظهور مصطلح حرب المياه ، وعدت هذه الحرب أقسى وأكثر تاثيراً من العمليات العسكرية ومن نتائجها تعطيش المكان وزيادة رقعة المناطق المجففة وموت الثروة السمكية والزراعية وظهور الكثير من الأمراض الجديدة والغريبة على قطعان الجاموس والماشية والطيور ايضا ، إضافة الى أن ضحالة المياه المستخدمة في الشرب ساهمت بانتشار الأمراض بين سكان المنطقة ومنها الكوليرا والتايفوئيد وامراض هضمية اخرى ساعدها في ذلك قلة الخدمات الصحية والمتابعة في بلد وصلت ميزانيته بصورتها الانفجارية الى 75 مليار دولار.

أذن نحن نتحدث عن وهم فردوس عندما نريد ان نظهر للعالم جمال بيئتنا وسحرها وأصولها التاريخية ، ويبدو إن هذا العالم مبتلى بكل شيء على مستوى الطبيعة والأنسان حيث لا يتجزأ الاستلاب هنا ، فما يصيب الطبيعة يصيب الإنسان وما يصيب الإنسان يصيب الطبيعة لأن ثنائية التعايش قائمة بين الإنسان وطبيعته منذ الأزل ، ولهذا أبعاد عن اهل الأهوار عن بيئتهم قد يعني إبادة او انتحار ،وعلى مدى عقود كان سكان هذه المناطق يظهرون للغازي والمحتل عناداً في المقاومة ، وكان الغزاة يولون هذا المكان عناية الدهشة ويبعثون مستشرقيهم وضباطهم الأشداء لمعرفة المكان وطبيعته ليسهل السيطرة عليه ، لهذا نرى أن الأجانب والغرباء من كتبوا عن المكان (العودة الى الأهوار)وخصوصيته هم أكثر وأهم من الكتاب العراقيين الذين تناولوا الموضوعة نفسها ، وكتابي لماكس كالفن وثيسكر دليل على هذا ، فالكتابان صورة حية لوقائع الحياة ومشاهدات صادقة عن (المعدان)و عالم يصفه ماكس كالفن في مقدمة كتابه بأنه يمتلك ارثاً حضارياً اصيلاً ورائداً ،وإن المكان بخصوصيته وطبيعته الساحرة يمتلك الحق ليسكن ذاكرة العراقيين وهي تفترضهُ واحداً من أمكنة الفردوس التي تخيلها البشر اقترحوها أو تلك التي كتبوا أمكنتها والسعي لها في قصصهم وأساطيرهم ، فيما كتبت المستشرقة البريطانية الليدي دوورا عن المكان من خلال حياة طائفة الصابئة المندائيين ، وفي أول محاضرتها عن المندائيين والأمكنة التي يتواجدون فيها والتي ألقتها في المعهد الآسيوي العالمي في لندن تحدثت دوورا عن الأهوار واعتبرتها واحة لجنائن ضمت بين ثناياها الكثير من الأعراق والديانات والأصول ، وقالت إن هذا المكان كان في نظر الصابئة المندائيين المكان الأنسب لممارسة طقوسهم الدينية والدنيوية حيث الماء الجاري الذي لايمكن أجراء التعميد بدونه ، وحيث القصب والطير والأسماك ولهذه الأشياء أهمية كبيرة في الطقوس الدينية ، ويعتقد المندائيون أنهم من اقدم المذاهب ثم العصور التي تلتهم ، ولم (عليهم السلام)والأعراق التي سكنت المكان وهم كانوا مع آدم ونوح وإبراهيم يزل هؤلاء الى اليوم يحتفظون بما ورثوه وتعلموه من أجدادهم الأوائل في ممارسة طقوسهم وعاداتهم ،وظلوا ومنذ آلاف السنين يحتفظون بخصائصهم الاجتماعية والروحية في ترابط تأريخي نادر وأصيل.

كان المندائيون الأوائل الذين سكنوا بطائح أهوار العراق وعلى ضفاف دجلة والفرات قد نشأوا أصلاً في المناطق الجنوبية من بلاد فارس وبالضبط في سفوح جبال دهلران المقابلة لمنطقة الطيب قرب الحدود الشرقية للعراق مع بلاد فارس ، وكان هذا الامتداد يمثل تضاريسياً العمق المائي لمناطق الأهوار العراقية حيث يمتد هذا العمق مع فيضان نهر الكارون القادم من المرتفعات الإيرانية وليشكل هذا الامتداد مسطحات أهوار الأهواز أو ما يسمى الذي يعتقد أنه واحد من بوابات النزوح المندائي القديم نحو عمق البطائح العراقية فسكنوا (هور الحويزة)اليوم أولاً أهوار العمارة الشمالية في الكحلاء وقلعة صالح وبمرور الأزمنة واصلوا نزوحهم إلى العمق ليصلوا أهوار البصرة وسوق الشيوخ في الناصرية حيث كان لديهم في القرن التاسع عشر واحدة من اكبر المحلات السكنية في

التي نشأ فيها طور غنائي مشهور هو طور(الصبي) ، والآه والونين القادم من (محلة الصابئة)هذه المدينة ذلك الطور المبني أساساً على الشكوى والتضرع يمثل امتداداً تاريخياً وآثارياً واجتماعيا لتلك الآه التي كان السومري يطلقها بحثاً عن رفاهية حياته وفردوسه المفقود.

الكثير من (الكنزا ربا)في الكتب المندائية المقدسة التي حفظها المندائيون بأناة وحرص وأهمها كتابهم المقدس الآيات التي تظهر بعضاً من صور ومناخات هذا الفردوس المقرب للمندائي من خلال ملائكة النور والتسبيح ، وكذا كانت ألواح سومر المكتشفه في الكثير من المناطق الأثرية في الأهوار تتحدث بذات المعنى عن ذلك المكان ، ، أو ما يسمى تل حفيظ المنسوجة حوله الكثير من (حفيظ)وربما المتداول من الأساطير الحالية حول أيشان الحكايات والعجائب والقدرة الخارقة للمكان ومن يحرسهُ من جن ووحوش غريبة الأشكال والمنطقة المغناطيسية التي حوله كما في نظرية مثلث برمودا ، حيث يعتقد أن في هذا المكان يوجد الكثير من الكنوز الأثرية التي هي أحمال من الذهب والجواهر، والنور القوي بسطوعه المخيف يمثل واحدة من أخيلة التصور عن هذه الجنة ولكن .المعتقدة والفردوس الخيالي الذي دونه الإنسان في ألواح خياله وظل متوارثا ومعتقدا فيه حتى يومنا هذا الحقيقة العلمية المطلقة أن لاشيء مثل هذا ، وما تخيله الإنسان عن هذا الفردوس ليس سوى صور لحلم يتمناه ويريده ، وانعكاساً لكل تلك اللحظات القلقة وما ورثه من النظم الإقطاعية والملوكية وحروبها ، ظل ذلك الفردوس الملاذ الوحيد والآمن والذي بناه الإنسان في خياله السري وليس العلني إذ كان يخشى ليجاهر برغبته في رغبته لامتلاك الفردوس الذي كان حكراً للآلهة والملوك
.والكهان والطبقة الراقية

إذن المكان تخيل الفردوس بعدة صور نظرا لتباين واستيطان الثقافات التي عاشت في المكان من أزمنة سومر وحتى الثقافة العربية الإسلامية التي مازالت قائمة الى اليوم ، فلكل ديانة وثقافة صورة متخيلة آتية من تعاليم الكتب وآداب تلك الديانة ، ولكنها قد تلتقي في ذاكرة واحدة وهي إن أبناء الأهوار كانوا يعتقدون جازمين أن الفردوس يقع في أو بالقرب من بطائحهم ، وربما جعلوه أبعد كي يكون السعي إليه جزءاً من مهمة بطولية يستحق من اجلها الحصول على هذا المكان الخالد كما في أسطورة جلجامش وقصص الخليقة الأولى وبقية .الملاحم والأساطير العراقية

اليوم ومع تراكم الأزمنة وظهور الفكرة العلمية وسيطرتها على العقل البشري ، بدا واضحاً إن كل ما يتخيله الإنسان كان في اغلبه ضرباً من الخيال وخاصة في افتراضه لتلك الأمكنة ومواقعها على الأرض ، فهي لم تكن موجودة أصلاً سوى في النصوص المقدسة للكتب السماوية ، وهذا ما اعتقده الإنسان العراقي وآمن فيه في مراحل متقدمة من عصوره عند بعث الرسل والأنبياء ، ولم يعد اليوم ينظر الى الأهوار كما كان يتخيله أجدادنا وهم لا يلامون على أخيلتهم الجميلة وذلك لأن جمال المكان وسحره وتأثيره كان يمنح الكثير من التصورات والافتراضات التي يصنعها المكان في الخيال ويحاول الإنسان من خلاله التخلص من بؤسه وضعفه ووضعه .الطبقي البائس

وعليه فأن صناعة جديدة للفردوس ينبغي أن يكون بصورته الأرضية والواقعية التي يمكنها أن تعيد لأبناء الأهوار ذات المشاهد القديمة من ذلك الخيال الخصب والذي يصور المكان بفنتازيا مكوناته الجميلة والخالدة وهذا الأهوار فردوسنا الأرضي المفقود)قد يتحقق في عبارة واحدة يتمسك فيها الجميع دولة ومؤسسات ومواطنين ..(فلنعمل جميعا لعودة ذلك الخيال الى سابق من خلال العمل والتطوير وشحذ الهمم

2008تشرين الثاني 8زولنكن في

الفصل الثاني ..ومعدانها أجداد هيرقليطس ..مديح إلى مدينة العمارة

ومالك المطلبي ، وجمعة ..ومسعود العمارتلي ..إلى فلاسفة القرن الواحد والعشرين جبار عبد الله الجويبراوي) (وقاسم مُشكل إن كان حياً يرزق...اللامي ، ونعمة مطر

تقع العمارة في الطرف القصي من جنوب شرق كوكب عطارد، وتحيطها مدن غمرت بالماء والقصب وتواريخ ، حلم مرة الملك المقدوني الإسكندر أن يدك غرورها بسنابك خيله ومنها (ميسان)مملكة سومرية قديمة تسمى يستطيع أن يكسر جبروت جيوش كورش فارس ،لكن المنية مسكته من رقبته في بابل ،وظل قادته من بعده يحلمون بميسان ، لكنها أبت أن تكون كما ثمرة الكمثرى في فم مشتهيها ، وكذا هي منذ أن خلقها الله وحتى زمن المجالس المحلية ويافطات الأحزاب الألف ، ومن ذلك التاريخ البعيد للملك المقدوني ما تركته حملة واحد من قادة جيشه قبل الميلاد والذي سجل فيها مشاهدته وإعجابه 325في حملته إلى تلك المناطق عام (نيرخس)البحري المسمى بصلابة سكان تلك المناطق في مقاومة الغزو الأجنبي ،وحتما عرب الأهوار من سكان تلك البطائح هم من أوقفوا ...حماس الاسكندر في النزول في حملته إلى جنوب بابل ، فهو حتما كان يحلم بضم مواطن الآلهة الأولى إلى ملكه كم 160ميلادي ، وتتشابه في الولادة مع مدينة الناصرية 1860بدت المدينة الحالية كمركز حضاري في عام في مقاربة زمن تأسيسهما والسبب الذي دفع العثمانيون إلى بنائهما ، ودائما هو الخوف من .جنوب غربي العمارة ثورة العشائر العربية التي كانت تسكن هذه الأمكنة ، فبنيت مدينة العمارة لسبب هو أن تكون مقرا للقوات العثمانية أما سبب تسميتها العمارة فيعود إلى قبيلة العمارات التي .وللسيطرة على تمرد وغضب عشائر بني لام وآل بو محمد وليس كما بقية مدن العراق الناشئة وسرعة قيام الأنظمة المدنية المتحضرة وبسبب التكوين .كانت تسكن المنطقة 1958العشائري الصارم لهذه المناطق ظلت العمارة خاضعة إلى تأثير الإقطاع وهيمنة مشايخ العشائر إلى عام تموز التي جاءت بقانون الإصلاح الزراعي الذي جمد واخضع سطوة الإقطاع وهيمنته الاجتماعية 14وقيام ثورة .والاقتصادية على سكان تلك المناطق

أعطت العمارة من جسدها مالم تعطه أي أمراة من رحمها في مواكب صناعة تواريخ المكان ، فكان شهداؤها وجنودها ومبدعوها لا يهجعون لخوف اللحظة الصعبة عندما تكون هناك حرب أو كارثة طبيعية أو أي هاجس آخر لسكان (الخرّيط)، كما كان الجوع يصيبها في عهودها القديمة فتأكل من لب القصب ودموع السمك الناحل وتطبخ طفولتها ثم تتجاوز أزمتها لتعود مدينة واقفة ممتلئة الأثداء بحليب الصبر والأساطير وتواريخ الكلام الجميل لتلك الأسلاف المؤطرة بالزمن الحقيقي والأصيل لتلك المستعمرات المائية التي احتضن فيها المعدان خصوصية شعب يفكر بهاجس تسجله النظرة القدرية التي تصبغ ما تحت الجفن ليكتب وليفرد ثيكرز عنهم يوم عاش في أهوار هؤلاء القوم من الأصالة بحيث يفوق قدمهم حتى الشعوب التي سكنت الأمريكيتين)العمارة كتابه المهم المعدان ..(قبل اكتشافها

لم يسكن المعدان مدينة العمارة ، بل أحاطوها بمدنهم المائية التي صنعوها من القصب لتعوم على الماء كما يعوم القمر المكتمل في السماء ، ولم يخضعوا لمغرياتها الساحرة ويهجعوا إليها في سمر أو سكن ، ويأتون إليها فقط حين يشح السكر والدقيق ومراجعة الطبيب وغير ذلك فهم إلى زمن ليس ببعيد يكرهون حتى دفاترالنفوس و الجنسية والجيش ، ويلجؤون إلى الجنسية فقط عندما تملؤهم رغبة التعلم لشعورهم البعيد انهم وريثو ألواح الكتابة وذلك المجد الغابر الذي سطرته سلالات سومر واكد ولكش ولارسا ومملكة ميسان القديمة التي لم يُحفر في أطلال حلمها لحد الساعة وخاصة في الطيب وجلات والشيب والجزر التي تصعد على صدر الماء في مناطق عديدة ويعتقد أنها مسكونة بالجن والحيوانات الغريبة والتي تحرس كنوزا ما ، وهي ليست سوى أمكنة أثرية لتلك المملكة القديمة التي صنعت مجدها وامتدت إلى أمكنة بعيدة إلى شمال دجلة ،وكانت حارسة أمينة لبقية مدن العراق عندما فعندما احترقت أور على أيديهم في زمن الملك آبي ـ .كان العيلاميون يفكرون بألتهام مدنٍ عراقية لملكهم الكبير سين آخر ملوك سلالة أور الثالثة ، حملوا معهم نثار إله القمر الذي كان اله مدينة اور وحارسها الذي لا يعرف آخذوه إلى مدينة سوسة عاصمتهم ليعبدوه بدلا من السومريين فكان إن مر .سبب تخليه عن مدينته في هذه المحنة

موكبه المحمول على كل بطائح ميسان التي ذرفت دموع الحزن على رحيل آلهة اور ، ويقال إن الميسانيين اعترضوا القافلة في اكثر من مرة إلا أن العلاميين كان لديهم جيش جرار من الصعب هزيمته ، وبرحيل ننار إلى سوسة انتهت آخر أزمنة عبادة هذا الإله في الجنوب العراقي لتبدأ عبادة اله آخر غيره مثل انو وانكي وابسو ومردوخ واناانا ، وكانت لبطائح ميسان حصة في عبادة هذه القوى التي سخرها العراقيون للسيطرة على هاجسهم الروحي القلق بسبب ما يسببه الماء والطبيعة من تأثير على البيئة والمكان فظلت مدن ميسان كما مدن الجنوب العراقي الأخرى تعيش هاجس الماء ومنها العمارة التي لم تشرب من مياه الأهوار كما غالبية مدن ميسان ، فقد كانت تروي عطشها من دجلة الذي يشق خاصرتها بوجع العشق والذكريات واراكيل ليال الصيف المستظلة بسعف النخيل وهو كنحاة اللغة يصحح الأغلاط الإملائية في قصائد العشاق وخواطر مراهقي المدينة وحنكة الشيوخ وحكمتهم وهم يسردون وقائع أزمنة المدينة التي كان العراق يتطبب بهوائها ضد كل الأمراض التي تضرب الصدر والجهاز التنفسي.

ففي لحظة الوصول إليها يبدأ إغراء الاكتشاف يصيب الزائرين بدهشة انتظار ما بعد هذه المدينة حيث ممالك القصب الصغيرة وحياتها المميزة ، فتكون المدينة نقطة الوثوب إلى الضوء الأخضر المصنوع من مرئي امتزاج الماء بالقصب والنخل بلهجة المعدان وهم يستريحون تحت ظلاله بعد قيظ نهار يعوم فيه الإنسان مع حيواناتها لكي يوفر لها بهجة السباحة في تلك المياه الواقفة عند حدود النظر والأسطورة التي يصفها من ذات المكان عند خط الشروع المكتشف والرحالة البريطاني وليفرد ثيسكر الذي عاش في الأهوار من نهاية حتى حزيران 1951 تلك اللحظة التي يمتلكها المرء (المعدان)عندما كتب في كتابه الشهير .ولفترات امتدت لسبعة شهور أحيانا1958 عندما تصير العمارة قريبة من ذلك المكان المائي الذي يحمل بهجة حياة أناس بسطاء وطيبين أسيء فهم وجودهم الاجتماعي بسبب عزلتهم وإصرارهم على العيش في الحياة كما يرونها ويريدونها هم لا كما تريدها الحضارة كنت أستمع إلى الأمواج تلطم .طوال الليل كان الهواء البارد القادم من الأهوار يهب من ثغرات القصب) :والمدينة سواد يتضح .وحين خرجت فجراً ، رأيت صفحة المياه العظيمة ظلال أرض بعيدة .الجرف وأنا على وشك النوم للحظة أخذتني رؤيا حفيظ ، الجزيرة الأسطورية التي لن ينظر أليها أحد دون أن يفقد حواسه ، .بشروق الشمس)يرسو على الضفة قريبا مني قارب رفيع أسود مشرئب .بعدها عرفت أنني انظر إلى أجمات القصب العظيمة .الشيخ الذي يستخدمه في الحرب بانتظار أن يأخذني إلى الهور . (المشحوف

قبل أن تبنى القصور في مدينة اور خرج الرجال في الفجر من بيت كهذا ، دفعوا قوارب تشبه هذه ، مضوا للصيد كشفت حفريات ليوناردو وولي منازلهم القديمة ونماذج من قواربهم مدفونة عميقة تحت بقايا سومر أعمق .هناك (من دلائل الطوفان نفسها ، خمسة آلاف من التاريخ هنا ، ومع هذا لم تتغير طريقة الحياة كثيراً

المليئة بحليب (الفافون)وبذاكرة الماء وانتظارها لرياح المعطرة بضفائر القصب وبائعات القمر الآتيات بأواني .الجاموس واللبن الرائب تقترب المدينة بثقافتها من إتقانها لحركة المتغير في كل شيء

المتغير في حركة الموجة التي لا تثبت في المكان الواحد وهو ما يشمل الإنسان في رؤى :فقد كان هيرقليطس يقول إن :وكذا المدن كما اعتقدته عندما قرأت كتاب أيتاليو كالفينو مدن لامرئية .العقل ونموه منذ الولادة وحتى الكهولة .المدن تعيش في عقولنا اكثر من النساء اللائي نعشقهن بقوة

تقترب العمارة كمدينة من رؤية الفيلسوف الإغريقي فهي ملازمة لتحولات الموج منذ خليقة البدء العراقي ، هذه التحولات التي تحكي عنها أطلال التراب والرمل التي تحيط في المدينة والتي ظلت مهملة من قبل المؤسسات الأثرية ولم يفكر أحدهم في التنقيب الجدي عن مدن وممالك عاشت أزمنتها الحضارية منذ النشوء الأول وكانت هي الامتداد الشمالي الشرقي لحضارة سومر واكد ومصدها القوي تجاه الحملات العيلامية والفارسية التي كان يتعرض موقعاً أثريا لم تنل حظها الكامل من 48لها العراق منذ قديم الزمان ، ففي مدينة العمارة وحولها يوجد حوالى (حرامية الآثار)التنقيب وقد تتعرض في أحيان أخرى شانها شأن أماكن الأثر في الجنوب العراقي إلى قرصنة واللصوص الأميون الذي يحفرون بالمعاول البدائية وبدون طرائق علمية في تلك التلال والأطلال الأثرية مما يؤدي ..إلى إتلاف الكثير من الآثار الخزفية والحجرية وألواح الطين

أثر فوق أثر لتتوالى الطبقات وهي تنتظر معاول المنقبين لنكتشف العالم البعيد لمدينة كانت تأوي أحلام الجنوب رحمه)فالمؤرخ العراقي عبد الرزاق الحسني .النائي حتى في النفي السياسي للذين كانوا يقاومون الأنظمة الفاسدة الذي قضى فترة من فترات الاعتقال والسجن أيام الحكم الملكي في سجن مدينة العمارة الذي كان يعتبر واحد (الله من سجون النفي بالنسبة لمعارضي الحكم الملكي ، وتحدث في لقاء تلفزيوني عن تلك الأيام وقال أن العمارة بطيبة أهلها ونقاء سريرتهم كانوا لا يشعرون ضيوفهم حتى لو كانوا سجناء بأنهم غرباء لهذا كان العراق كله موجودا في ، كما تحدث عن طيبة ونقاء هواء العمارة وجمال (عمارتليون)قواويش السجن وكان الجميع يشعرون انهم مناخها حتى أن الدولة في بداية حكمها الوطني أنشأت أول مشفى للأمراض الجلدية والمعدية في العراق في مدينة

.العمارة
في جلسة حميمة مع واحد من أبناء مدينة العمارة الذين أرخ لتاريخها البعيد والقريب هو السيد عبد الجبار الجويبراوي في قاعة فندق بابل في مؤتمر الثقافة الأول بعد التغيير والذي أقامته اليونسكو بالتعاون مع وزارة الثقافة العراقية عام 2004 . كان الرجل يتحدث لي عن مدينة تتعدد فيها التكوينات والطبقات والثقافات والديانات أيضاً ولكنها تجمع كل تلك التلاوين في كف دجلة ،وهو يذكر إن المدينة تدين بالعرفان لوجودها الحضاري الجديد إلى الكثير من الأساتذة الأوائل من الطائفة المندائية واليهود والمسيحيين أيضاً وله مقال تأريخي يؤكد أن المرحوم يوم صار (قلعة صالح)المندائي غضبان رومي هو أول معلم في العمارة وقد كتب في ذلك مراسيم استقبال مدينته إن أقاموا احتفالا ضخما كالاحتفال الذي أقاموه عندما -مسلمين ومندائيين -لم يسبق لسكان قلعة صالح)معلماً توجهوا بالسفن والزوارق إلى منتصف الطريق النهري الذي يربط القلعة بالعمارة في مقاطعة المزارع الكبير داود الحميد، وذلك في انتظار ابنهم البار المعلم الجديد غضبان رومي الناشي الذي قفز من السفينة التي كانت تقله إلى الشاطئ وهو يبكي فرحا، ويقبل أيادي الشيوخ الذين تجشموا عناء السفر من اجله ويشد بقوة على أيدي .(مستقبليه ويعانقهم بشوق وحرارة
وقد نشرتُ واحدا من بحوثه في هذا المجال في العدد الأول من مجلة الأهوار التي كنت أديرها وتصدر عن وزارة الموارد المائية العراقية وفيها تسجيل لتلك الفترة الخصبة من بداية التعليم في العمارة وكيف كان لأولئك التربويين متعددي الطوائف والاعراق الدور في إنشاء مدارس البنات والبنين ،وذكر لي إن شيوخ آل بو محمد هم أول من كسر طوق الحذر والممنوع في إدخال البنات إلى المدارس عندما سارعوا إلى تسجيل بناتهم في هذه المدارس التي بدأت ببنات بعدد الأصابع واغلبهن من العوائل المندائية واليهودية والمسيحية ولكنها تطورت لتشمل بنات وان أوائل أساتذتها من الصابئة كان من مؤسسي خلايا التنظيم الشيوعي في العمارة في ثلاثينات .المسلمين أيضا القرن الماضي وتم اعتقال الكثير منهم ، واغلبهم من مدرسي مادة الرياضيات التي برع فيها الأساتذة اليهود وتمتاز مدينة العمارة التي شهدت مثل غيرها من مدن الجنوب العراقي بواكير التعليم إنها كانت تعطي .والصابئة أسماء مدارسها بأسم شيوخ عشائرها مثل المحمدية في مقاطعة شيخ آل بو محمد العريبي والمدرسة الفالحية في مقاطعة الشيخ فالح الصيهود وفي ريف المجر الكبير فتحت المدرسة المجيدية في مقاطعة الشيخ مجيد الخليفة فتحت المدرسة الشوائية في مقاطعة (الميمونة فيما بعد)وهم شيوخ قبيلة البو محمد وفي ريف المجر الصغير الشيخ شواي الفهد والمدرسة السلمانية في مقاطعة الشيخ سلمان المنشد وهما شيخا آل ازيرج وفي ريف كميت ومثل هذه الظاهرة في حصر .فتحت المدرسة الحاتمية في مقاطعة الشيخ حاتم غضبان البنية شيخ بني لام المسميات لم تكن سوى في لواء العمارة فأغلب المدارس الناشئة في الجنوب العراقي كانت تسمى بأسماء ملوك العراق في العهد الوطني أو بأسماء المناطق الجغرافية التي تقع فيها فمثلا كانت الفيصلية نسبة للملك فيصل الأول .هو المسمى العام لأغلب المدارس الرائدة والتي تم تأسيسها في بداية الحكم الوطني
كما كان لأبناء الطائفة المسيحية دور كبير في دفع عجلة التحضر في هذه المدينة ، أنا اكتشفت هذا في واحدة من صدف العسكرية الطويلة عندما عاشت أخيلة الأمل في رؤوس الجنود والخوذ أن نخرج سالمين من هذه الحرب التي لاترحم دمعة ألم وصلوات الآباء ونحيب أولئك الذين يؤلم الثلج أطراف أصابعهم فيمنعهم من تلمس خدود عشيقاتهم أو كتابة خواطر الحب أو عزف موسيقى السلام وسط أزيز الشظايا وعطاس البنادق وأوامر الرمي .القادمة من الأفواه المرتعشة لضباط الرصد
فهو على حد تعبير ديورانت في كتاب قصة الحضارة الصانع الأمهر .هناك نصف السرايا جنودها من الجنوب أولئك الذين كانت ممالك نيسان أور وشط العرب توشحهم برغبة الوجود عبر هواجس التوسل وأمنيات .للمقاتلين)العري مع الآلهة الأنثى ،لهذا في الحرب كان اغلب الجنود من أهالي العمارة والناصرية والبصرة لا ينامون في إلا ومعهم خيال لواحدة تتعرى بفتنة النخل والهور والأبوذية لا لتصنع بهجة للحرب ومسبباتها بل (يطغاتهم لتجعلهم أحياء ومتأملين رغبة العودة لتلك القرى التي رفضت أحلام كل اكاسرة الكون وصافحت بمودة جمالها .وسحرها أبدية المكان وروحه الطقوسية المدهشة
، كان طيبا وطباخا ماهرا ، كل أزمنتي معه من مودة التعاشر (نبيل)كان معنا في الفصيل جندي مسيحي أسمه والصداقة والفة الربايا وتأمل النجوم في الليالي الصافية والإنصات إلى قداساته الخجولة ولهجته جعلتني انسبهُ إلى .فلا اسأله عن مدينته.العاصمة وبالضبط كنت أتصور انه من كرادة مريم
كنا نتحاور عن طبيعة البشر .ذات يوم وفي ليلة ربيعية أمطرت حواسنا بلذة رائحة الورد االآتي من الوادي القريب قلت له أي جهة تقصد .وتأثير المكان على هذه الطبيعة فسمعت منه أننا نتشابه في الطبيعة كوننا من جهة واحدة .فأنت من الناصرية وأنا من العمارة.الجنوب :قال .
!..مسيحيٌ من أهل العمارة :ملأتني الدهشة والغرابة وقلت

عن أب وجد ،وعندما تنتهي الحرب سأصنع كل ذريتي في العمارة فهي الأصل دائما ، وهناك ليسوع قداس :قال مع القصب فعشنا معه بسلام ، فليس أجمل من أن تعيش مع شيعة الأهوار لأن سريرتهم أنقى من دمعة المطر على خد الوردة.

أعجبني وصفه الشعري ، ولم أستغرب أن تسكن روح الشعر قلب مسيحي من أهل العمارة فالشعر يسكن في جسد فتخيلت صباحا ربيعيا هادئا تقرع فيه أجراس كنسية في العمارة وسألته إن كانوا هم من .المدينة منذ أزل الحياة بقايا ما ترك المستعمر الإنكليزي في المدينة بعدما كانت مدينة العمارة منطقة امتداد وتجحفل لجيوشهم يوم قررت بريطانيا غزو العراق وطرد العثمانيين منها وانطلقت بحملتها من البصرة برتلين أحدهما باتجاه الناصرية والآخر باتجاه العمارة ،فرد علي نبيل انه وأجداده في العمارة أقدم من أزمنة الإنكليز ويعتقد إن عائلته سكنت العمارة منذ أواخر القرن التاسع عشر ، فأبوه ذكر له ذلك.

لا أعرف أين هو الآن ، ولا اعتقد انه يسكن العمارة الآن فلقد فرقتنا نهاية الحرب ،ولكني واستذكارا لهذا المسيحي العمارتلي الطيب الذي جمعتني فيه ليالي الحنين لرقصات البط والشامات المرسومة على شكل نجوم واقمار تحت مسيحي مدينة)حنك بائعة القيمر الصباحية ، أستعيد مقالة جميلة لصديقي الشاعر الميساني جمال الهاشمي عن :ومنها قوله (أبناء الميزوبوتاميا في ميسان)والتي نشرها منذ زمن وهي بعنوان (العمارة

وهل أنسى أصدقائي الكلدان في محلة التوراة وكنيسة أم الأحزان من اقدم الكنائس في الجنوب وزيارتنا لها أيام القداس ونذورنا أثناء النجاح ومازلت أنا وعائلتي وكل أبناء المدينة يحضرون الأعياد الدينية وبانتظار أبينا عماد القادم من البصرة لأقامة القداس ، ومازالت عائلة متي صليوة في العمارة أما رعد وبقية العوائل تسكن في تلسقف ومن العوائل التي عادت في أواخر التسعينات إلى تلسقف عائلة المرحوم أليأس نيسان كتو "حاليا (والذي أقيم له اكبر مأتم في مدينة العمارة

أما عن اليهود الذين سكنوا العمارة وربما منذ أول بابل عندما أتى بهم الملك البابلي نبوخذنصر فيتحدث الكاتب ومازالت بيوت عوائل العمارة من الطائفة الموسوية من اليهود موجودة)عنهم برغبة استذكار سريعة قوله فبيت داود كباي وبيت ساسون مشعل موجود ومازلت أتذكر أبناء تلسقف الذين عاشوا معنا أيام الابتدائية أتذكر وهذا الكلام يؤكد على إن المدينة كانت موطنا للكثير من .(اوكين شموئيل وعائلته الطيبة وبيت يوسف اوري الديانات ومنها اليهودية ، وقد تكون المدينة محطة لرحلة العزير الكاتب ،النبي أو القديس اليهودي الذي مقامه كم من مدينة العمارة ، والمكان يحظى بتقديس المسلمين واليهود 70اليوم في الناحية المسماة باسمه على بعد على حد سواء وله مواسم للزيارة وقد كان مزارا للكثير من الرحالة العرب حيث يعتقد أن العزير قد توفي في هذا المكان أثناء سفره بين بابل وإيران أو بعض الروايات تقول انه كان قادما من القدس لتفقد أبناء طائفته في هذه ق؟م ، وهذا (425- 465) (ارتحشته)النواحي ويقول المؤرخون انه توفي في عهد الملك الفارسي كورش أو المقام عشت معه في شهور الحرب عندما كان قاطعنا يسمى شرق دجلة وكنت أقرا في ذاكرة المكان صورة رجل تورع في حلمه التوراتي واتخيل لحيته الطويلة يتدلى منها صبره وارادته وهو يقطع الطريق بين بابل والعمارة ثم يود الوصول إلى اتباعه في قرى دهلران المحاذية لمنطقة الطيب جنوب العمارة ويقال إنها أيضاً كانت موطنا أزليا لأبناء الطائفة المندائية غير أن وجهته لم تقف عند ذلك المكان بل كان يريد الوصول إلى سوسة وبعض الروايات وعلى أية .تقول انه أراد أن يتباحث مع الملك الفارسي أرتحشته حول أحوال أبناء الطائفة اليهودية في بلاد فارس ، وهو ينزل راح الطريق وتعبه عند دجلة حيث العمارة اليوم وفيها تستريح (ع)حال فأنا أتصور العزير النبي هواجسه المتعبة من تأمله السماوي ومنها ينطلق إلى البطائح الخضر التي من قصبها صنع نوح سفينة النجاة ..والملك كوديا بنى معبده الذي أمرته الآلهة ببنائه لحظة أطياف حلمه الشهير

إنها آنية مزخرفة بأطياف اللون .هذه المدينة الخصبة كما الأنثى التي لايمل غرامها من إنتاج الأجنة الجميلة الاجتماعي والروحي لشتى المذاهب والديانات،فهذه المدينة الوحيدة من مدن الجنوب من تضم عوائل كثيرة من ومنهم التربوي والمترجم المرحوم جلال عبد القادر (سوامرة العمارة)فيقولون (سُر من رأى)سوامرة السامرائي الذي عمل مدرسا للغة الإنكليزية في العمارة ثم أخذته السياسة إلى بغداد ليعمل دبلوماسيا في سفارة العراق في موسكو وقد ترجم كتبا عديدة منها ما يخص الطاقة النووية صدرت عن دار المأمون للترجمة وهو أخو الناقد العراقي المعروف سليم عبد القادر السامرائي.

تلد المدينة وجدانها من تواريخ بشرها هكذا كان هيرقليطس يفكر بالمر عندما كان اليونانيون يحاولون معرفة خيال المدن كي ينجحوا في نسج مناديل العشق للآلهة التي تصنعها أخيلة المدن وخصوصا تلك التي تقع عند ضفاف النهر أو المحيطات أو البحار.

مدينة العمارة صاحبة الخيال الهيرقليطسي قفي تكوينها ، ولكن لم تكن وليدة العقل الإغريقي بل العثمانيون فكروا بصناعة مكان لخديعة المتمرد فولدت المدينة ، وكانت مدن الجوار تنظر إليها بحذر لأنها مدينة للعسكر والمدافع

ليرتدي ثوب الطين والنخل (الأوغلم)خرج من معطف الوالي والحاكم (العمارة)وثكنات التموين ، لكن المكان والأثر البعيد لمجد سيوف أناس أدركوا مع الضوء والقصب واجنحة البط حركة الماء ليجدد من ذاكرته وليصنع حضارته ، فابتعد المكان عن نياشين الترك ليدخل في طيات ضفائر بنات الأهوار ولتكتسب كل الأرض من الطيب الى القرنه اسم المدينة وليعيش هذا الوجدان بالرغم من العوز الذي لاصقه بسبب سني الإقطاع والمجاعات والكوارث ولهذا عانت المدينة من حزن الهجرة لتزحف جموع فقرائها صوب العاصمة وليؤسسوا هناك واحدا من تموز 14اكبر التجمعات الفقيرة في العاصمة وكانت في البدء بيوتاً من القصب والطين ولكنها عمرت بعد ثورة .(الثورة ، صدام ، الصدر)ومر المكان بثلاثة تسميات مدينة 1958

بعض البغداديين يعتبرون مدينة الثورة مجتمعا عمارتليا مصغراً برغم أن سكان هذه المدينة الفقيرة أتوا من ريف الجنوب كله ولكن الغالبية هم من أهل العمارة أولئك الفقراء الفلاحون الذين أصابهم قحط وفيضانات خمسينات .القرن الماضي

ظلت عادات العمارة ولهجتها وثقافتها تسيطر على اغلب قطاعات المدينة ومسميات أسواقها وشوارعها ، وبقي حنين الناس فيها وروابطهم تمد حبال المودة الى ذلك المكان الجنوبي الساكن لضفاف دجلة والذي كان الإنكليز عندما صدهم سحر المكان وعذوبة أجوائه فكتبوا في (عاد)انهم دخلوا جنة 1916يوم دخولهم إليها عام دفاترهم خواطر جميلة عن غرابة ما شاهدوا من فطرة الناس وجمال النساء وأفياء نخل ذاقوا فيه حلاوة والطعم انه تفاجأ في التركيبة الاجتماعية المتعددة للمدينة وان أهلها :اللذيذ للبن الرائب ، فكتب أحد ضباط الحملة قائلا من ديانات عديدة عكس ما كنا نعتقد انهم مسلمون فقط ويجهلون أي شيء عن الحضارة والروحانيات ولكننا اكتشفنا إن المكان ليس تجمعا سكانيا بناه الأتراك للضرورة العسكرية ، فالمكان هو بقايا آثار عريقة من آثار بلاد .الرافدين الساحرة

تضج المدينة بغرائب سحرها ، وللغناء فيها طعم العسل الذي يقطر من شفتي فم المدينة وهي تمد نعاس لياليها على أرائك النهر وليس للعمارة إن تكون مدينة تتحدى أزمنة القساة والجوع وضريبة المذهب والطبيعة المجتمعية المميزة في صوت اللهجة والتقاليد ، فهاهو الموال والأبوذية يوشم خد المدينة بأساطير النغم ، وربما مسعود العمارتلي وقصته وشهرته تمثل إحدى غرائب ودهشة وجود المدينة في بحثها الأبدي عن أزل الموسيقى الذي .يعود بجذورة الى قيثارات الذهب التي وجدها متناثرة بين حناجر الألواح وجدران المعابد ومسلات الملوك

يعرفها الجميع وظهرت في مسلسل تلفزيوني جسد دور مسعود فيه (الأنثى ، الذكر)وقصة الأسطورة الغنائية .الفنان سعدون جابر

لكن أسطورية الحكاية والنغم تخلقان خصوصية ليس لمسعود وحده بل للمدينة ، فلكي تكون المدن خالدة عليها أن تنتج المطربين الخالدين ،ولأن الجنوب في كل الأرض منتج أزلي للغناء فلا بد أن تحمل كل مدينة خصوصية مع واحدة من حناجرها الطروبة ،وفي الجنوب السومري امتلكت الناصرية والعمارة بعض هذه الخصوصية المميزة داخل)دون غيرها من مدن الجنوب من خلال إنتاج تلك الأصوات الخالدة التي ظهرت في مرحلة طربية واحدة ...(...حسن ، حضيري أبو عزيز ،مسعود العمارتلي ، ناصر حكيم وغيرهم

شكلت حنجرة مسعوده صورة الهاجس الخيالي لذات المدينة من خلال أطروحته الغنائية المتميزة التي تحدت .ظروفا وتقاليد اجتماعية قاهرة

ارتدت مسعودة ملابس الرجل فلم ينتبه الناس الى متغير الشكل بل كان الانتباه مأخوذا بسحر الصوت الذي جال (المسترجل)وقد قربت مجالس الشيوخ والأنس هذا الصوت .في نواحي العمارة آتيا من مهد الولادة في الكحلاء وكان صوته يضج بعذوبة المكان وخصوصيته واقترابه من حياة الناس وطبائعهم وهو يشد في بحة الحزن وجدان لوعته الذاتية فيما اختاره ليترك أنوثة الضفائر وبروز النهدين ليرتدي العقال ويقف على المسرح في دافع مفترض إن الرجولة قد تسمح له بتحقيق طموحه في الشهرة والانتشار والوقوف على مسارح ملاهي ومقاهي العاصمة وبالفعل دفعته شهرته واعتراف متذوقي الطرب الأصيل بصوته الى الوقوف جنبا الى جنب مع المطرب الشهير حضيري أبو عزيز وغنّيا معا في حفلات في بغداد وحلب وغيرهما من المدن وسجلا لشركة اسطوانات .جقمقجي الكثير من الأغنيات

يذكر كالفينو في صناعة مجد المدن إن المدن تحيا ببهاء صوت منشديها ،فهم وحدهم من يصنعون للآلهة .والأباطرة وقادة الجند مدنا ساحرة تعيش مع نشوة شعبها النادر

ربما إنسان المدن الجنوب من الندرة بأنه يخضع لحسية الصوت قبل أي حس آخر لهذا كان الغناء يمثل الوجدان فكان مسعود يجسد تلك .العميق الذي يفسر الحياة كما يتمناها الفقراء من الصيادين والمزارعين واصحاب الحرف الرؤى في إبداعه ونضوجه الغنائي المبكر وفوقها كان يلحن أغانيه بنفسه من خلال الدندنة والأذن الموسيقية الإبداع الحقيقي تصنعه الفطرة الحقيقية ، لهذا خرجت :دون أن يكون عازفا أو أكاديميا ،وكأنه عند مقولة دافنشي

من حنجرته ملحنة ومدوزنه أغانيه الخالدة التي تنقش كلماتها وأنغامها في ذاكرة الشعب كما نقشت ألواح سومر سوده)كلماتها وأنغام قيثارات أميراتها قبل مسعودة بآلاف السنين فجاءت أغانيه عبقة وحسية وطروبة كما في براضه أمشي براضه)و (كصة المودة)و (بوية محمد)و (خدري الجاي خدري)و (ذبي العباية)و (شلهاني).

في مزج إحساس المدينة بشخصية المطرب وصوته نحصل على طبيعة متجانسة وتوفيقية بين الإنسان وبيئته ، وربما ما فعله مسعود من تغيير جنسه هو تعامل ودي مع الطبيعة لهذا لم يعانِ من المتغير في مجتمع من الصعب كبح جماحه وتعديل نظرته وربما الفضل في ذلك يعود الى جمالية صوت المطرب وسحره وتأثيره على سامعيه لينسى الناس تبعية ما فعله ولينطلق في جسد المدينة ومسمعها صوتا يمتلك الحظوة والقيمة الطربية وليصبح يومه موعدا لمجالس لأكثر من وجيه وشيخ عشيرة وأريكة مقهى.

هذا المؤثر المهيمن على سطوة التقاليد لم يقف عند حدود ومساحة المدينة ، فما يزرعه الجنوب تحصده العواصم دائما ، فكان أن ذهب مسعود الى بغداد وليمثل هناك ظاهرة حسية ووجدانية في نقل إحساس مدينة حمل اسمها ، لتكون المدينة أول من تنتمي الى (العمارتلي)كلقب فكان النشوة في الصوت يمازج النشوة في سماع الأشم اللقب الفني المسموع ومعه المطرب عبد الأمير الطوريجاوي الذي ينتمي الى بلدة طويريج قبل أن يشاع أسماء (الدراجي ، والبغدادي والبصري والناصري والحلي)المدن الملتصقة في مطربيها كما.

لقد كان يقولون مهما فعلت العواصم بغربائها فإن أعناقهم مشرئبات الى بيت الولادة ،ولهذا لم تؤثر العاصمة في مسعود ولم تعطه الشهرة غرور التبجح والبحث عن سكن حضاري في واحد من أحيائها ،وربما ظل الشعور بازدواجية الجنس ملازما له وظلت الكثير من الإشاعات والتغميزات تلاحق نظرات سامعيه حتى وهم يصفقون في نشوة صوته الذي يصنع الموال المحمداوي بحرفة ماهرة وأخاذة ،واعتقد إن مسعود كان يعي هذا جيدا فأراد إثبات شيئا من فتنة الصوت والرجولة فعمد راجعا الى مدينته الكحلاء وهناك تزوج من واحدة ربما كانت مسحورة في صوته لتحدث تداعيات كثيرة ظلت مستورة ولم يكشف عنها ،ولكن التاريخ دائما يلصق في الكبار النهاية المأساوية ، فينتهي هذا الصوت الخالد بصورتين من النهاية واحدة تقول إن مسعود مات مسموما على يد زوجته بعد أن كشف أمره وشاع ارتداؤه تلك الازدواجية في الجنس وكأن الزوجة حملت وزر هذا الأمر الذي قد يعتبر عارا في بعض وجهات النظر الاجتماعية فدست له السم ،ويقال انه مات متأثرا في مرض التدرن الرئوي وذلك عام1944.

ومهما يكن ففي مجتمع عشائري مثل الكحلاء لم يكن توقع هكذا ردود فعل مفاجئة حتى مع مبدعٍ اشتهر على صعيد العراق كله ،لان الوضع الجسماني للمطرب ، وضع حساس وحرج وليمكن أن يتناسى حتى لو كان صاحبه شكلت ظاهرة فنية متميزة في ثلاثينات وأربعينات القرن الماضي (مسعودة)غير أن مسعود العمارتلي أو .ملكاً محمد القبنجي ،داخل حسن ،)،وربما يكون هو واحدا من الريادات الغناء العراقي يوم تأسيس الإذاعة العراقية .(حضيري أبو عزيز ،مسعود العمارتلي

سجلت تلك الدراما الحياتية والوجدانية تأثرا في الضمير الحي لدى الكثير من أبناء المدينة وإن أحداً لم يفكر وقتها ليفسر ويغور في السيرة الذاتية والفنية لهذا المطرب ، لكن مقالة للروائي العراقي فيصل عبد الحسن وهو يتابع كتاب في)مختارات شعرية للشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري والتي صدرت ضمن مشروع اليونسكو قد تنبهت الى هذا الصدى الذي تركه المطرب في الوجدان الجمعي لدى الطبقة المثقفة والمتحضرة في (جريدة ذلك الوقت عندما أشار الكاتب فيصل عبد الحسن الى ظنه أن الجواهري كان يقصد تغزلا المطربة مسعود التي وضع -عبدة -ومن قصائد المختارات))العمارتلي في واحدة من قصائده قول الروائي فيصل عبد الحسن وربما هي مطربة الجنوب -معسولة الشنب -فيها أجمل عبارات الغزل بشخص مطربة سوداء ، نضيدة الأسنان ((-مسعود العمارتلي -العراقي المعروفة بأسم رجل هو

:ومن بعض أبيات القصيدة قول الجواهري

أعبدة يا أبنة الطرب ويا معسولة الشنب
ويا معزولة النصفي ن مبتعد ، ومقترب
كرجع الحائك النول بنسج المطرف القشب
....ويا مهزوزة الخطوا ت لم تخطئ ولم تصب

لم يكن(مسعوده) هو النتاج الخالد لهذه المدينة والذين جعلوا من العمارة اسما ملتصقا مع الفنان أينما حل وارتحل بل أن العمارة ظلت ملاصقة للكثير من الحناجر التي شاع الولع بأدائها في زمن انتشار الكاسيت وظاهرة التسجيلات التي عاشت عصرها الذهبي في زمن ظهور سلمان المنكوب وعبادي العماري وجلوب ونسيم عودة وغيرهم ، وحتما هؤلاء هم أحفاد بررة لذلك الصوت الخالد الذي أشاع مسحة الحزن والعشق والحنين واللوعة

والتي مثلها جيدا صوت المطرب سلمان المنكوب ، وكانت إذاعة القوات المسلحة في بداية سبعينات القرن الماضي تذيع أغنيات هذا المطرب لاكثر من مرة في اليوم فلقد كان له التأثير الساحر والإيقاع الذي يبعد(هوم سك) العزلة والخوف من شظايا الحرب عن الكثير من أبناء الجنوب الذين جندتهم الدولة في حرب الشمال والتي التصقت فيها تلك الهوسة الشهيرة لواحدة من الأمهات العماريات اللائي ثكلن (حرب برزان)المسماة بأبنائهن في تلك الحرب بقولها يوم جلب النعش إليها قادما من ربايا الثلج الباردة الى دفء القصب والماء في والطركاعة تعني في لهجة الجنوب المصيبة (بيّس بأهل العمارة ..طركاعه اللفت برزان)العمارة قولها مصيبة وصاعقة ضربت الملا مصطفى البرزاني لأنه)وكلمت بيّس تعني أوغل ، والمعنى العام هو ..والصاعقة .(أوغل قتلاً بأهل العمارة من الجنود

وكان الجنود يأتون بأطياف مدينتهم وظلال النخل وآماسي كورنيش (العمارتلية)يمثل الغناء بعض هوى الروح دجلة من خلال طور المحمداوي الذي يجلب لهم كل صدى يتمنونه بدءا من الأمهات وانتهاء بحبيبات عيونهن أوسع من عيون جياد براري الشيب والطيب وجلات وكميت وعلي الشرقي والغربي ، وأرق من ريش البط الملون بتفاصيل مشاتي الأهوار الدافئة ،البط الصيني والاسكندنافي والكوري،وذكر بعض الجنود إن بطا كنديا كان يزور .شتاء العمارة

بين البط وأسطورة مسعود أصنع وجودا مفترضا لمدينة تصنع أثرها من دلال الأزمنة وتواريخ الجوع والعشق والصلوات المندائية لأولئك الروحانيين الذين كانوا يجوبون القرى والمدن ليكشفوا طالع الحلم وغسل الاجفان .الحيرى بضوء النجوم

أعترف أنني لم اعرف العمارة في صبى قراءة المراهقة إلا من خلال واحد من عشاقها الذين يؤسطرون مودتهم بأرغفة القصة ،وفيها يتخلصون من ألم الجوع والنفي والسجن السياسي ،عشقها لتكون حاضرة معه في وجدان الكلمة والحلم وليصنع منها بهاء عمره واغترابه وحنينه الذي يشبه حنين السمك الى وسادة الطين هروبا من .شبكة الصياد

مع قصص جمعة اللامي عرفت أن للعمارة بابا كبيرا صوب دلمون وأنها أفق مؤطر بأساور القصب ودخان مواقد هذا المبدع الميساني الذي يحمل في وجدانه صورة المدينة كما .القرى وأصيل الدمعة النازل على سعال الفقراء يتخيلها اله غاب في عتمة الشوق لمدن صنعها من طين قبلاته ونسيها بسبب كأس خمر في ليلة مودة مع جارية .تركها جلجامش في محطة من محطات دروبه التي يجوبها بحثا عن الخلود

لهذا كانت قصص جمعة كشاف لخرائط مدين لم يلفها نسيان قبعات الحاكم والشرطي والسركال فقط ،بل لفها .حزنها الأبدي وهي تصنع حقيقتها الخالدة لتكون أنثى جميلة من إناث الماء والنخل وسعادة الجواميس

لقد كتب جمعة اللامي برقة الذي يتوارث بهجته من روح المدينة المشتعلة في طفولة أبنائها فوانيس ملونة ،لهذا .فقد أغرتني قصصه وأشياؤه ورحت اذهب معها لتخيل مدينة لاتشبه اور فقط بل تشبه دلمون أيضاً

النجوم)أولئك الذين يموتون كل يوم ويولدون كل يوم ، مجدهم أنهم صناع مدهشون لصناعة الأشياء البراقة ،أساور الفضة ،وشم الخد شظية الحرب وقصيدة الشعر ، هم وحدهم من يحق أن يطلق عليهم لقب أمراء الضوء ،الذين يمسكون أجفان الماء بأصابع الرعشة وزعانف السمكة وحركة سعف النخل ،هي ذاتها من تغفو على ظلها المدينة التي تضخ للعالم البيارق وبيوت الطين وعطاس البط ،العمارة تلك الحافلة التي لاتمل من الدوران حول مركز الكون لتصنع لعشاقها المنافي الخالدة ،أينما يكونون فهم لها ،وأينما تكون فهي لهم ،عاشقة يغرقهم عريها ببهاء النوم في سكرة دجلة ليترنح العمر فيهم ويدخرون لأمنيات اللغة البهيجة التي يطلقها بحداثة الكلام عند ويلبسها .الناقد والشاعر مالك المطلبي وهو يفك طلاسم مشفرته الأزلية في البحث عن الداخل التي يُرى ولا يُرى ثوب الخجل القروي في الشعر الذي يطلقه عيسى حسن الياسري وهو يمد أسارير شعره السبعيني أيام دواوين وزارة الثقافة والأعلام عندما كنا نقرأ فيها ضمير الولد القروي الأسمر وهو يشد عاطفة الجنوب لطوف الطين باذخة وأميرة وصانعة للخبز والدموع .وشتلات الرز ونحيب موتى من يرحلون بصمت الفلاسفة والمكتشفين فيما تأخذنا كلمات الشاعر الشعبي مطر نعمة العلاف الى عذوبة الحالم بحلمه وهو يدق هيجان الشعر .والشهقات .في جسد الأغنية والأوبريت والدرامي الجميل

.....ولها الحلم كله ،ولها الصلوات .لها المديح كله .تعيش حيث يعيش الوجدان وحيث تعيش الآلهة

الفصل الثالث ....صابئة حران وصابئة المعدان وصابئة هذا الزمان

لقـد حـان أجلـي وألتمـس الـذهـاب ، ويخيفـني الّرحيـل ، ولا أعـلـم كـيف سيـكون طريقـي ؛فليس هناك أحـد))
((....غـادر ثم عـاد كـي أسألـه عـن الطـريق ، وكـيـف يـكـون "كـان أم مسيئا "تقيا

سام بن نوح ـــ كتاب تعاليم ومواعظ النبي يحيى ع

والتي يشير (عندما يتحول الدين الى قصيدة حب)في مقالة للباحث السوري الدكتور احمد عسيلي والموسومة 2007فيها على أهمية ما كتبته في كتابي عن تاريخ وغنوص الديانة المندائية والصادر عن دار نينوى في دمشق والذي نفدت طبعته الأولى من الأسواق السورية ، (الديانة المندائية من آدم ع حتى قراءة الخامنئي)والموسوم وكذلك نفدت كل النسخ التي شاركت فيها الدار في معرض الشارقة الدولي للكتاب، كان تأكيد الباحث على أن الديانة المندائية ديانة سورية وهي من اقدم ديانات المنطقة على أساس أن المندائيين الأوائل هم من سكن حران الواقعة في أعالي الفرات حيث سوريا اليوم ، وطالب الباحث من الدولة السورية بالاعتناء بتراث هذه الديانة والالتفات إليها وتأسيس مركز خاص بدراساتها وفق ما تقوم فيه الدولة من خلال الاهتمام بحضارات المنطقة الشامية ، وأنا أظن أن المندائية هي المجاور الحضاري لأقوام تلك المناطق من كنعانيين وآراميين ، وما تركوه من ارث لغوي باللغة الآرامية والسريانية والمندائية القديمة يؤكد على هذا بل يؤكد تطور الفكر الروحي والفلسفي والديني لديهم ، يؤكد قوة بلاغة الجملة والفكرة والقيمة الدينية (الكنز العظيم)لأن قراءة نصوص كتبهم المقدسة ومنها الكنز ربا والروحانية والسماوية لهذا الكتاب بالرغم من اختلاف النصوص وأفكارها عن بقية الكتب المقدسة كالتوراة والانجيل والقرآن وغيرها من الصحاح التي توارت وراء الأزمنة السحيقة ولم يبق منها إلا إشارات قليلة وشيء غير أن صابئة الشام هم .نادر من نصوصها وأغلبها على شكل حكايات مؤسطرة في الذاكرة المكانية لتراث المنطقة صابئة حران والمعروف عنهم انهم من عبدة النجوم كما أشيع في الدراسات التاريخية وكانت حياتهم تمتلك

المشابهات الطقوسية لمعتقدات حضارات تلك المناطق ومنها الحضارة السومرية والفينيقية والكنعانية ، وقد حاول مندائيو العراق من هم منحدرين من أصول عراقية نزحت في الأصل البعيد من المناطق المحاذية لبلاد فارس وبالضبط من مناطق دهلران وهي منطقة جبلية تقع تماما أمام منطقة الشهابي الملاصق لقضاء بدرة في محافظة ،ويمكن رؤية جبل (العمارة)من جهة ومن الجهة الثانية لناحية الطيب في محافظة ميسان (الكوت)واسط حاولوا النأي عن معتقد .دهلران من منطقة شيخ سعد على الطريق الواصل بين الكوت مدينتي الكوت والعمارة صابئة حران الذين يُظن أنهم لم يقروا بالوحدانية بشكلها الواضح وآثروا الشرك ، ولم يكونوا من مؤمني ومريدي يحيى المعمدان الذي عمد السيد المسيح ع في نهر الأردن وهو من الأنبياء الشهداء وله قبر يزار من رعايا كل ولصابئة العراق كتب مقدسة .ويطلق عليه قبر النبي يحيى ع .الديانات في وسط مصلى الجامع الأموي في دمشق وفيه وصايا النبي لقومه وتحمل دلالات روحية وتربوية ودينية تخص (تعاليم ومواعظ النبي يحيا)مسمى ب .سلوك الطائفة في شتى مفاصل الحياة

يدعي بعض المندائيين إن صابئة حران الحقيقيين هم موحدون وعاشوا في هذا المكان القائم في أعالي الفرات ، بالرغم من أن مناطق أخرى في المنطقة تسمى بذات التسمية ومنها ماهو في مناطق شرق العراق كما في المنطقة المسماة وادي حران في قضاء مندلي والتي كانت في الحرب العراقية ــ الإيرانية مسرحاً ملتهبا لمعارك ضارية بين البلدين ، وكنت قد عشت ردحاً من الزمن في ذلك الوادي الذي يفصل الحدود العراقية ـ الإيرانية مقابل إقليم إيلام ووجدت من سكان المنطقة واغلبهم من الرعاة أو خدم بعض مقامات قبور الأولياء من العلويين الذين كانوا يدفون في تلك المناطق بعد أن يصيبهم الإنهاك والجوع والعطش من طول المسافة والطريق الذي يقطعونه هربا الى بلاد فارس من ظلم وجور ولاة بني العباس حيث تجد المسميات أغلبها تنتمي الى أولاد الأمام موسى الكاظم ع ، وهؤلاء الرعاة والمزارعين من سكان تلك المناطق يملكون رؤية عن مرجعية المكان ، وعندما سالت أحد الشيوخ إن كان وادي حران في الزمان القديم موطنا لجماعات دينية غيرالمسلمين ومنهم الصابئة؟

إن المكان كان موطناً للكثير من الديانات القديمة وعاشت هنا أقوام عديدة وجرت في المكان حوادث تاريخية :قال كثيرة ولديهم في حكاياتهم وأساطيرهم ما يدل على أن المكان كان يكتظ بالمعابد والكهنة والأقوام القديمة وربما من .بينهم هؤلاء الصابئة الذين يسمع عنهم ولم يراهم في حياته

وهكذا تتشابه الأمكنة وتتشابه في تاريخها كونها كانت تمثل منذ القدم امتدادا حضاريا واحدا وكانت بلاد الشام ، حيث تتوالد الحضارات والديانات وتتصاهر فيما بينها وتكاد أن تعيد (بلاد الهلال الخصيب)والعراق تدعى لهذا ظل المندائيون يؤكدون على أن المندائيين ذوو معتقد واحد أينما .جذورها الواحدة الى أبناء نوح سام وحام حلت أمكنتهم حتى فيما بينهم صابئة حران وهذا أجادت فيه رؤية العالم العربي الكندي عنهم قوله كما ذكره أبن :النديم في الفهرست

بان دعوة هؤلاء القوم كلهم واحدة وسنتهم وشرائعهم غير مختلفة وان قبلتهم واحدة فقد صيروها لقطب الشمال (وقصدوا بذلك البحث عن الحكمة وان المفترض عليهم من الصلاة في كل يوم ثلاث ولا صلاة عندهم الا على طهور والمفترض من الصيام ثلاثون يوما وعليهم الغسل من الجنابة وتغيير الثياب ومن مس الطامث ويتركون الاختتان ولا يحدثون على فعل الطبيعة حدثا ويتزوجون بشهود وفريضة الذكر والأنثى سواء ولا طلاق إلا بحجة بينة عن .(فاحشة ظاهرة

ولكن بعض العلماء المهتمين بالديانات الشرقية القديمة ومنها المندائية يؤكدون أن الترابط العضوي والاجتماعي ويؤكده الدارسون كما يذكره .والديني قائم بين صابئة حران وصابئة البطائح وهذا ما لا ينكره المندائيون اليوم)) :قوله 2004 / 12 / 8العالم الألماني البروفيسور رودولف كورت في حوار معه ظهر في صحيفة الحياة بتاريخ هناك نصوص تشير الى أن المندائيين الأوائل تعرضوا لاضطهاد اليهود ، الأرثوذكس منهم على وجه الخصوص ربما ,فتركوا سورية وفلسطين لاحقاً وتوجهوا عبر تلال الجزء الشمالي من وادي الرافدين الى الجزء الجنوبي منه سنة وبدأت في القرن الأول الميلادي قبل أن يصلوا الى جنوبي وادي الرافدين في 100في رحلة استغرقت نحو لكن لا بد أنه ,بالتأكيد قد يكون هناك أفراد من بابل أو جنوب وادي الرافدين ممن اعتنقوا المندائية .القرن الثاني وأعتقد بأننا لا نستطيع تفسير كل ما .كان هناك أشخاص آخرون على معرفة بالطقوس والتعميد قدموا من الغرب لكنها نظرية أو .يتعلق بالمندائيين من ميثولوجيا وثيولوجيا وأيديولوجيا وغيرها استنادا الى أواني الأدعية وحدها .((فرضية

هذا هو التصور العلمي والفقهي والتاريخي عن صابئة حران وهو مشابه لما كان العرب في اغلب عصورهم يتعاملون معهم دون أن يشيروا الى مندائيي الجنوب العراقي إذ كانت حران تمثل في المدونات الشرقية منذ النهضة التدونية في العصر العباسي المكان التاريخي والروحي لهذه الطائفة ، وبالرغم من هذا ونتاج اقتراب حران من منابع حضارية ودينية أخرى كما أسلفنا لحق بصابئتها بعض سوء الظن والتفسير بالرغم من أن

النصوص القرآنية في أكثر من سورة وآية بجعلهم من أهل الجزية كانت قاطعة وواضحة واتخذها بعض علماء الفقه والشريعة والتفسير نصوصا لاحياد عنها وغير قابلة للتأويل وإظهار القصد المختلف.

لقد ورد ذكر الصابئة وبصورة مستقلة في القرآن الكريم وفي الآيات الآتية: ورد (سورة البقرة 62الآية من السورة الثانية) (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم آجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون). وفي الآية 69من السورة الخامسة (سورة المائدة) ورد: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون). وفي الآية 16من السورة 22 (سورة الحج) ورد: (أن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد)

وطوال تواريخهم نأى الصابئة المندائيون في المحاجات الفقهية والدينية عن صابئة حران وأثبتوا لذوي السؤال أنهم من الموحدين وأصحاب الكتاب وحقت عليهم الجزية كما ذكر في القرآن أسوة باليهود والنصارى كما حدث في زمن الخليفة العباسي المأمون ، ولم تكن دواوين الخلفاء تخلو من علمائهم ومفكريهم وخاصة أولئك الذين برعوا في الرياضيات والفلك ، وبعضهم نال نصيب نديم الصحبة لكبار علماء ونقباء الشيعة كما عند الشريف الرضي الذي كان أوفى أصدقائه مندائياً ، ولم يكن يهاب ويستعار من هذه الملة ، ويمكن أن نتذكر الرد الحكيم للزعيم الوطني عبد الكريم قاسم عندما اقترح في مجلس الوزراء تعيين الدكتور العالم المندائي عبد الجبار عبد الله رئيسا لجامعة بغداد ، فكان اعتراض رئيس مجلس السيادة أن لا يصح تعين غير مسلم لهذا المنصب ، فرد الزعيم: أنا أعين رئيسا لجامعة علمية وليس أمام جامع...!

قد يؤخذ من خلال الحكاية التاريخية والتوراتية بعض التصورات للوجود المندائي في حران حيث تنسب أول الموجودات الأزلية لهذه الديانة ، وهذه التصورات قائمة على مسيرة النبي إبراهيم ع الذي تذكره أنه ولد أو بعث من أور الكلدان العاصمة المقدسة لسلالات أور الثلاثة والتي عاشت عصرها الإمبراطوري في زمن سلالة أور الثالثة (2113 –2006 ق.م) وفي المعتقد أن النبي عاش في زمن الدولة الأكدية حيث ظلت أور تمثل واحدة ، من المدن الدينية والروحية حتى بعد انتهاء الدولة السومرية حيث عمرت ورممت معابدها حتى في زمن الدول البابلية في زمن حمورابي ونبوخذنصر وغيره من ملوك الدولة الكلدانية. ويبدو أن من المندائين الأوائل هم بعض من مضى مع إبراهيم ع في رحلته وربما كانوا هم من بعض مؤمنيه ، وبما أن بابل وحران وغيرها من المدن هي من أقام فيها النبي ردحاً من الزمن ثم اكمل مسيرته الى مصر وفلسطين والجزيرة العربية ، ويبدو أن أولئك المندائين الأوائل فضلوا البقاء والاستقرار في حران ، وربما كان النبي يترك بعض مريديه واتباعه في المدن التي يمر فيها لأتمام التبشير بالرسالة. وهكذا يكون الصابئة المندائيون الأوائل من بعض الذين تركهم التي بلغ فيها إبراهيم ع في مدينة حران أو تخلفوا عنه نتيجة لظروف وصعوبات الطريق التي واجهت النبي كما في روايات التوراة ، وربما استحسن المندائيون المكان كونه يقع قرب مجرى الفرات وأقاموا هناك معابدهم وشكلوا وجودا سكانياً مع باقي سكان المدينة وكان اغلبهم من عبدة الآلهة الحجر وبعضهم من عبدة الأفلاك والنجوم فكان هذا الخلط الحياتي والاجتماعي هو من نقلَ تلك الصورة المشوشة والمؤسطرة عن صابئة حران ، وربما القسر الديني والسياسي قد فرض على أولئك المندائيين نمطا من عبادة معينة لتلك الممالك والسلالات التي كانت تسيطر على المنطقة.

عاش الصابئة المندائيون منذ أقدم الأزمنة ، وهم حسب التدوين المقدس في كتبهم من أقدم المعتقدات التي تداخل نشوؤها التاريخي في عدة أمكنة ولكنها محصورة بين العراق وبلاد الشام وبلاد فارس حصرا، ولديهم ما يدعونه في سفينة النجاة ، ومجمل ما يصل ويثبت انهم عاصروا إبراهيم في أور ، وكان منهم من صعد مع نوح (ع) الباحث والقارئ من المتيسر والمسموح في التراث الديني لهذه الطائفة قد يعطي تصورا وانطباعا واضحا أن هذا المعتقد بشكله وثقافته ومرجعيته وحجته البلاغية قد يمثل صورة لأزل توحيدي قديم ، وربما اعتكاف آية الله الخامنئي على الانصراف لدراسة هذا المعتقد بشكل عميق وعلمي وفقهي ومنصف أوصله الى حقيقة أن المندائيين قوم أصحاب رسالة وموحدون صلة روحية ودينية وتبشرية ودروس. وكان ولهم مع النبي الشهيد يحيى (ع) حياتية والتي يستنبطون منها توحد ذاتهم في كتلتهم الأبدية التي حافظوا على تماسكها منذ أقدم الأزمنة ويدركون مع تعاليمه ذلك الأفق الواسع الذي حملته تلك التعاليم وهي تدعو الى الوحدانية والصفاء ، فالنبي الكريم الذي يتفاخر مندائيو اليوم بالانتساب إليه بعد نسبهم لآدم وإبراهيم (ع) يمتلكون الظن بأنه كان من العدل والطيبة واحترام الرؤية الأخرى انه حين عمد السيد المسيح فهو لم يعمده وفق تعاليمه المندائية الأولى بالرغم من أن المسيح (ع) من طقس معمداني تعود الى ديانته كما ذكره (ع) السلام طلب منه صباغته وفق ما يؤمن فيه يحيى (ع) النص في الإصحاح السابع قول السيد المسيح (ع):

(وإن لم أتتلمذ.. يا يحيى اصبغني بصباغتك وانطق الاسم الذي تذكره علـيّ ، وسأذكر صنيعك هذا في وثيقة ألغِ

)..اسمي من سجلك
والحديث بين النبيين قبل التعميد يخضع الى رؤى تتخالف ومنطق قد يصعب فهم مغزاه بالرغم من أن السيد المسيح ،لكن لضرورات قد فرض (ع)، كان واضحا في نيته من اجل رسالته الكهنوتية الموصى فيها ،وكذا يحيى (ع) ، قبله وخاصة الحيطة والحذر من التعامل في هكذا أمور خطيرة في المجتمع العبري ، (ع)مثلها على موسى وفي النهاية كان رد السيد المسيح واضحا في ذلك .وكان الحوار يشير الى ضبابية الوصول الى مشترك واضح (.أنت مسؤول عن خطاياك وأنا مسؤول عن خطاياي)الجدل قوله
كتاب تعاليم(يهيا) كما ينطق في المندائية والعبرية هو صورة من صور صناعة حكمة الروح وتهذيبها ، وكان الكهنة المندائيون الكبار ولم يزلوا يرون فيه مرجعاً مهماً بعد كتاب الكنزا ربا ، لأن المندائية كغيرها من الديانات لكن في النهاية جاء .الشرقية ترى في الرسول لهذه الديانة المبشر والمرجع والكلمة الواصلة بين العبد وخالقه :الأمر الإلهي بتعميد المعلم لتلميذه كما ورد في كتاب تعاليم ومواعظ يحيا
يا يحيى أصبغ المسيح ، أصبغه في يردنا وأصعد ضفة النهر حيث روح القدس تمثلت في حمامة رسمت صليباً))
..((
إذن مادام المندائيون يرون في القديس والنبي يحيا معمدانا ورسولا لوجودهم فأين كانوا قبل يحيا ، وهم يذكرون ومن جاء (ع)وأنهم عاصروا نوح وإبراهيم (ع)دوما في المحاجات التاريخية لوجودهم أنهم من نسل آدم بعدهم ؟
(ع)هذا يعني أن المندائيين وقعوا تحت التأثير الديني والحضاري ومتغيراتهما عبر عصور سبقت ميلاد المسيح وهذا ما ثبت في قراءات تاريخية لتلك العصور والتأثير الذي لحق في المندائية قسرا أو طوعا ، وأهمها تلك التي هيمنت على الحياة الدينية والدنيوية للمناطق التي تواجد فيها المندائيون الأوائل في بلاد فارس وبلاد الرافدين وهذه التأثيرات تنحصر في المعتقد الزرادشتي الفارسي وديانات وادي الرافدين القائمة على تعدد الآلهة كما في آلهة سومر وأكد وبابل وأشور ، وربما القراءة الأسطورية لتراث وادي الرافدين وقراءة الإرث المندائي القديم يقربنا كثيرا من وضوح رؤية هذا التأثير في الكثير من طقوسه وخاصة تلك التي ترى في الماء هاجسا للطهارة الروح والجسد ، وما يتعلق بالسماء وأبراجها والكينونة التي تهيمن عليها ، وبالرغم من أن أقوام بلاد الرافدين استطاعت أن تقترب من المفهوم السماوي والوحداني من خلال جعل انو اله السماء كبير الآلهة ، لكن الزرادشتية الفارسية اعتمدت على النار كمؤثر مطلق وروحاني للبشر، ويبدو أن المندائيين بعد نزوحهم من أراضي فارس صوب البطائح السومرية صار التقبل السماوي للديانات الرافدينية وما اكتسبوه من دعوات الأنبياء والقديسين اقرب الى وجدانهم وعقيدتهم مع انهم اكسبوها حالة متفردة هي الحالة الغنوصية التي تقترب من السلوك الصوفي إلى يعتقد أن سلوك المتسامي في الخيال يمنح النفس تقية الوقوع في الإغراء المادي وآثامه ، وبذلك هو يزهد عن .ماديات المحيط ويغط في سبات حاله ، ولا يلتفت الى ما يعتقده كماليات الزينة والهندام
وفي تصور متخيل اعتماداً على ما تعكسه الرواية التاريخية لحياتهم وما يتناقلونه في ارثهم المدون والشفهي وطبيعة حياة المجتمعات التي سكنت جنوب العراق واهمها شعوب سومر واكد ، كان المندائيون يعيشون في تجمعات سكانية قليلة وبعضهم يحاول جهد الإمكان جعل سكنه مقاربا الى المجتمعات السكانية الأخرى غير انهم كانوا كثيري التجوال بين هذه المجتمعات بما يشبه الدعاة الصامتين والذين يمارسون المهن الطقوسية التي تقترب من الفعل الكهنوتي مثل قراءة الطالع وتدوين الطلاسم والطب الروحاني والجسدي ، وبعضهم قادته فطنته الروحية الى امتهان مهن صعبة خلال هذا التجوال مثل مهنة صناعة السيوف والصياغة وأدوات الزراعة ، ولم يمارسوا في حياتهم أي مهنة حرة فنادرا ما يكون بينهم صياد أو محارب أو فلاح أو وزان أو حائك، إنها جزء من خصوصية الانتماء للحياة والثبات على ما جبل عليه المندائي ليكون مع خصوصيته والتي بالرغم من تعرضه للكثير من ممارسات الاضطهاد والإبادة ومحاولة الإرغام على تغيير ملته إلا انه في النهاية نال اعتراف المجتمعات على هذه الخصوصية واكتسبوا الاحترام حتى مع الإمبراطوريات القاسية والمتزمتة كما حدث في الرواية التالية والمأخوذة :1999من مقالة للباحث المندائي غضبان رومي ونشرها في مجلة آفاق مندائية
مرت عدة سفن تحمل بعض العوائل المندائية من آل مران والمندوية بالقرب من الجيش التركي المُعسكر في)) صدر الحد ، وفي المساء رست السفن ونزل راكبوها على شاطئ دجلة للعشاء ، وعندما سمع القائد التركي زارهم وسألهم عن أصلهم فأجابوه بأنهم صابئة مندائيون يرغبون السكن مع عشيرة بني لام لأنهم أناس طيبون وأخيار ، وأوضحوا له بأنهم صاغة مهرة ، وبعد أن قضى وقتا معهم وعرف طبيعة خلقهم ودارت قهوتهم على الحاضرين وبعد أخذ ورد وافقوا (طابو)طلب منهم أن يسكنوا هنا ويعطيهم كل شواطئ دجلة في المنطقة ويعطيهم بذلك وشرعوا ببناء بيوتهم من القصب والبردي ثم غيروها الى شواطئ الكحلاء ببناء بيوت من الطين هناك ، ولذلك القديمة وأول من (مي سيانة)نستطيع الاستنتاج والقول أن المندائيين هم البناة الأوائل والسكنة الأوائل لمدينة

((.، حيث استوطنوها مع القائد التركي الذي بنى القلعة1865سكن مدينة العمارة الحالية وكذلك قلعة صالح عام ذهبت حران وأهلها الى أطلال التاريخ وألواحه الطينية والرُقم المدفونة ولم يبقَ من المكان سوى أطياف من عاشوا فيه وتركوا لنا أرث المدونات وأحفاد زحفوا بمراكب المعيشة والطقوس الى الجنوب حيث شكلوا فيه وحدة دينية وحضارية حافظت بإصرار عجيب على وجودها ولم تنقرض أو تنحسر مع تعاقب الحضارات ومتغيراتها ، فقد عاصروا أهل سومر وذهبت سومر ، وبقوا هم ، وكذا مع أهل أكد وبابل وغيرهم من الذين أسسوا لهم في العراق دولاً وممالك وإمبراطوريات وحتى مجيء الدولة الإسلامية التي نظرت إليهم دون أية فوارق وقسر وجعلتهم كما أمر القرآن وأوصى أن يكونوا من أصحاب الجزية.

وفي الجنوب حيث الماء الوفير عاش المندائيون مع أهل البطائح دون أي شعور من الطرفين بالتنافر ، بل أن التعايش كان قائما على مدى الأزمنة وكانت القبائل العربية في الجنوب العراقي تستقبل الوافد المندائي الذي يحمل بضاعته ورؤاه وقراءات الطالع في سكن خاص وينال شيئا كبيرا من الاحترام من قبل شيخ القبيلة ، ويكفي للمندائيين أنهم عاشوا بين سكان الأهوار ومدنهم منذ تأسيسها وكان لهم الدور الكبير في تأسيس المناشط وأصبح ذلك التعايش يمثل صورة .الحضارية الأولى في تلك المناطق وخاصة المؤسسات التربوية والإدارية للاندماج الاجتماعي مع امتلاك هذه المكونات خصوصياتها الثقافية والروحية ولم يكتب يوما أن أهل الأهوار منعوا مندائيا من إقامة طقوسه بالرغم من حرص الصابئة على إقامة طقوسهم بعيدا عن المشاهدة العامة لسكان تلك المناطق وربما كان كهنتهم الروحيون يدعون من أشراف القوم من المسلمين وأصدقائهم الموثقين لمشاهدة وتأمل هذه الاحتفالات حيث أرتنا الوثائق والصور التذكارية للمجالس المحلية والبلدية لمدن وألوية وقصبات الجنوب العراقي في بداية الحكم الوطني في العراق وجود شخصية مندائية معروفة ومؤثرة ضمن أي تشكيلة من هذه التشكيلات.

ويمكن أن نقرب الصورة بشكلها الروحي والتذكاري مع لحظة عشتها في ناحية الكحلاء عندما كنت جندياً لأشاهد مرة أخرى متعة هذا الطقس في واحد من أعيادهم عندما صار الماء مغتسلا لطهارة الروح والبدن ، حيث نزل رجال الدين بملابسهم البيض الناصعة الى ماء النهر وسط تجمهر أبناء الطائفة حيث مراسيم زواج بين شابين مندائيين صبغت حمرة البراءة والخجل خد العروس لأرى في مرآة انعكاس أزمنة بعيدة كان فيها من فرط محبة التعايش بين المندائيين وسكان الأهوار أن يقولوا نحن من)معدان الصابئة(.

كان الماء يغسل ذاكرة كل شيء ويديم وصل الحياة من خلال صناعة المتغير لأزمنة وجود أي هاجس حياتي ، وكانت الحضارات وحتى اليوم تخشى في موتها شيئين لاغير ،جنون أباطرتها وشح الماء ، فجنون الأباطرة يفضي الى الحرب المدمرة ، وشح الماء تفضي الى العطش وبالتالي موت الأخضر واليابس وكل حي.

لهذا نظر المندائيون الى الماء بوعي وقدسية وخشوع ،وربما هم تواصلوا مع الطقس الروحي الأول الذي اصبغ ، ومنحه بركة الرؤيا والنبوءة والبشارة ، فكان يمثل في أدبياتهم الدينية (ع)فيه يحيى المعمدان جسد يسوع والأسطورية والتراثية شيئا ذكرته الكتب ومشوا على الذكر ولم يحيدوا عنه قيد أنملة حتى قال أحد كهنتهم لي في منه نأخذ الحياة ، والحياة تأخذ وجودها من الرب المزكي :ذلك المكان على ساقية ماء باردة في هور الكحلاء. هم يجدون في الماء مغتسلاً لكل خطيئة وصانعاً للشيء الذي يكونَ فيهم الشعور والتسامي والخانعة بما يملكون ، لهذا فهم بتكوينهم الطبقي يقتربون من الاشتراكية بمفهومها العلمي وقلما تجد بينهم الفوارق المادية وخاصة في الأزمنة القديمة ، وطالما يكون الماء تجدهم يجاورنه في ألفة العيش والمحبة برغم انهم لا يسترزقون منه ولكنهم يعايشونه في لحظة التكريس والتعميد واقامة النذور والأعياد وكل ما يحتاجه المندائي ليكون قريبا من خالقه كما هو الطقس الضروري لإنقاذ الأنفس من (المصبتا)إن الماء هو طريق للأيمان بان التعميد)) :يعتقد كهنتهم بالقول ((.براثن الأسرار المادية وتقوية النفس البشرية بإنعاشها بنور الحياة المتجسد بالمياه الحية الجارية

فكل ماء جارٍ هو الحياة في تحولاتها التي لا تتوقف ، هكذا يعيش فيهم المعتقد هؤلاء الذين يسكنون في حضن الطبيعة وقرب مراعي القصب ومدن الجاموس والأساطير.

يحتفون مع معدان المكان بذلك الألق الحياتي الذي توارث من تلك الأزمنة التي لم تسقط في بئر الانقراض والنسيان بل أبقوها حية وفعالة ومبتهجة بما تؤديه من لحظة متسامية مابين الشعور والإحساس إذ يختلط المادي في الحسي كلما اسبح في خياله يمنحني بهاءه :فتولد نشوة الوصول وهي شيء من الغنوص كما عند المتصوفة في قولهم وكذا المندائيون يفعلون ذات الشيء لحظة اكتساب طهارة الماء وسيره إللا منتهٍ ، فصورتهم على .ودهاءه وفطنته ضفاف دجلة الكحلاء وهم يمارسون طقوسهم يعكسون للناظر الصورة الشجاعةً والمؤمنة بما زرع في قلوبهم من إصرار وإدراك ، وهكذا أحسست هناك بأن المعدان ليسوا فقط هؤلاء الذين دفعتهم طبيعة القدر الحياتي وظروف المكان ليكونوا هكذا حراس الأبد لقطعان الجواميس التي كانت في يوم ما من الحيوانات المقدسة كما في غابر فيكون الامتداد البيئي والروحي بين معدان الإسلام ومعدان .الزمن السومري وعند الهنود وغيرهم من الشعوب

.الصابئة هو امتداد لحياة المكان وأصالته
وجايلوهم (صابئة البطائح)بين صابئة حران وصابئة المعدان ، وأقصد الصابئة الذين عاشوا قرب أهل الأهوار على محبة التعايش والاندماج دون أن يخدش أحد مشاعر الآخر ، فقط فضل المندائيون أنهم اقتربوا من ناصية العلم واكتساب المعرفة أكثر من أولئك الذين فضلوا الطبيعة البكر والارتماء بأحضان الطبيعة والرضوخ لقدرها في كل ما تمنحه ، بينهم فاصلة من الزمان ليست بعيدة ، فحتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وما تلاه كان الرحالة والمكتشفون ومنقبو الآثار يتحدثون عن أناس نال من حياتهم الكثير من الغموض والجدل ، فهم لم يقصدوا عرب الأهوار فقط ، حيث تميزت حياتهم وطبيعة عيشهم عن بقية أطياف الشعب العراقي ، بل من جاوروهم من طائفة يقول أبناؤها انهم ما تبقى من مجد السلالات الغابرة وأن لديهم ما يثبت ذلك ، عندما عرض رجال الدين والكهنة والشيوخ لأولئك الرحالة والدارسين الأجانب كتبهم وقراطيسهم التي حفظت منذ القدم على ألواح الرصاص ، فكان أن أصاب الذهول البعض ، ونشر أبحاثاً ودراسات عن المندائيين الذين كان يعرف عنهم في أوربا من خلال النزر اليسير الذي ذكر في تواريخ الديانات القديمة وكذلك ما كان مدونا عنهم في التراث العربي ـ الإسلامي ، وإزاء هذا الكشف حاولت بعض الجامعات الأوربية فتح أقسام خاصة لدراسة هذا المعتقد ، فالليدي دروا الباحثة البريطانية التي تعبر رائدة التعريف والتعمق والبحث المقارن في عالم المندائيات كشفت من خلال كتابها عن الصابئة المندائيين ومعتقداتهم وفي بعض محاضراتها في الجامعات البريطانية والجمعيات العلمية أن الجنوب العراقي هو حاضنة أزلية لأولئك الذين تظن انهم يتبعون اقدم الديانات الحية وانهم على الرغم من قلتهم ومحاولة الحفاظ على وجودهم وتراثهم بشيء من العزلة والصرامة والكتمان إلا انهم كانوا مشاركين فاعلين في ديمومة المجتمعات المحيطة بعضهم والسعي الى ديمومتها وتطورها عندما تحدثت عن أناس تمسكهم عصامية المعتقد وحب الحياة وإظهار الطاعة للرب الواحد وجعل الماء المكان المقدس لأقامة الطقوس ومراسيم التعميد ، .(المندى)وكان لديهم كما بقية الديانات مكان للعبادة يشبه المسجد والكنيسة والكنيست في وظيفته يسمى
تفتي بنا الديانة المندائية الى عوالم الذات الواسعة التي هي مصنوعة من مشاعر الغنوص الذي يعتمد على الجهد الذهني الذي لا يحتوي أية شائبة مادية ولا يحتاج منا الى جهد عضلي للتركيز كما في اليوغا الهندية ، لأن التسامي في فضاء العقل يقودنا الى صفاء خالص والذي اعتمده أخوان الصفا في صناعة مودتهم مع الفكر والفلسفة وأقاموا فكان ينظر إليهم في مرجعيتهم إن ما جاهروا فيه خفاء جلساتهم ومناظراتهم .عليها حجج وافتراضات ومناهج مأخوذ من ارث صابئة حران الذين كانوا في ديانتهم يضعون غنوص الروح وحالتها المترامية الذهن والتسبيح ويفسر الدكتور .طريقة للاتصال بعوالم الحسية والبعيدة كما مع موجودات الطبيعة من كواكب ونجوم وأفلاك
:رودولف في ذات الحوار في صحيفة الحياة الغنوص على أنه
((.الغنوصية لها علاقة بالمعرفة الخاصة بأصل النفس البشرية وبكيفية عودة النفس الى عالم النور))
وربما أو يكاد يكون من الجزم أن حمل صابئة حران هذا العالم النوراني بعد أن شعروا في تعرضهم لخطر الإمبراطوريات والاختلاط ودخول المعتقدات الملحدة الى ديانتهم القديمة القائمة على الشرك وعبادة الأصنام والأبراج والحيوانات ، ليؤسسوا في جنوب بلاد الرافدين مستوطناتهم ولتبقى الى اليوم حاضنة لذات الرؤى التي .اعتمدت الغنوص مرجعا لأقامة ذلك التواصل بين العبد وخالقه
أحتضن الجنوب العراقي أبناء هذه الطائفة كما تحتضن الأم وليدها البكر ، وعاشوا على الأديم العذب والمالح لمياه الرافدين دون أي شعور بالتذمر والبطر والغرور ، ولكنهم مع التطور المدني والحضاري الذي شهده العراق بعد الحكم الوطني وتطور المرافق الحياتية وتهيئ آفاق التعليم العالي للكثير من أبناء الطائفة بدأت بعض الهجرات المتفرقة من أماكن الأزل الى العاصمة حيث هاجرت بعض العوائل المندائية من العمارة والناصرية وسوق الشيوخ والكحلاء وقلعة صالح والحلفاية والبصرة الى بغداد لأسباب حكمتها الوظيفة وحصول البعض على شهادات جامعية عالية توجب عليهم الانتقال الى العاصمة والعيش فيها ،والبعض قاده تطور الحياة ورفاهيتها وتحسن المستوى المعاشي عندما كثرت الأسواق في بغداد ومنها سوق الصاغة الشهير في شارع النهر اللصيق بشارع الرشيد من .جهة نهر دجلة وكان اغلب صاغته هم المندائيون
وفي الحرب العراقية الإيرانية بدأت هجرة مندائية كبرى للعوائل بسبب ظروف الحرب ونتائجها عندما كان الكثير من المندائيين يسكنون في مدن قريبة من جبهات الحرب كما في قلعة صالح التي كانت يقع فيها مقر الفيلق السادس ،والكحلاء التي كانت مقرا لفرق قتالية للفيلق الرابع ، فيما هاجر صاغة منطقة العشار الى بغداد بسبب وصول قذائف المدافع الإيرانية الى أماكن رزقهم لاقتراب العشار من جبهة القتال في معارك شرق البصرة وبحيرة .الأسماك
فيما لم يهاجر من عوائل المندائيين في الناصرية وسوق الشيوخ إلا القليل وأكثرهم في فترة الحصار الاقتصادي على العراق نتيجة للكساد وعزوف الناس عن شراء الذهب بسبب قلة الموارد المعشية وانتشار الفقر والعوز

وتحول سوق الصياغ في المدينة الى سوق للنجارين .وخاصة بين موظفي الدولة الذين كانوا أهم زبائن الصاغة والحدادين والمواد الإنشائية ، بعد أن باع الصاغة محلاتهم وفضلوا بغداد سكناً ، وآخرون بدأت عندهم نوايا الهجرة الى أوربا والتي شهدت في منتصف التسعينات موجة من اللجوء وخاصة في السويد وهولندا واستراليا 2003،ولديهم اليوم جاليات كبيرة في هذه المناطق تزايدت بشكل كبير بعد الغزو الاحتلال الأمريكي للعراق في عندما تعرض الكثير من أبناء الطائفة الى حملات تصفية وقتل وتهديد منظم من قبل الجماعات الإرهابية التكفيرية ، فكان أن دفع الكثير من أبناء الطائفة وبينهم رجال دين حياتهم ثمنا لبعض الفتاوى التكفيرية والمتخلفة التي ولم تفعل الدولة شيئا فعالا يحميهم وتركتهم يحملون حقائب السفر .تدعوهم الى مغادرة العراق أو يعلنوا إسلامهم والتهجير بعد أن تركوا بيوتهم ومحلاتهم وخاصة في منطقتي البياع والعامل حيث تكثر العوائل المندائية التي سكنت بغداد ،وكان اغلبهم استقر في منطقة جرمانا في سوريا ،وكأنها هجرة مضادة الى أماكن النشوء الأول ، ففضلوا الاحتماء به على أمل عودة الاستقرار والعودة الى وطنهم وبيوتهم (ع)للديانة حيث يقع قبر نبيهم يحيى .ومحلاتهم

يعيش أغلب مندائي المهجر في أوربا وينتظر المندائيون في سوريا مع قوافل طالبي اللجوء أمام مكاتب الأمم المتحدة في دمشق ، وللمندائيين في المهجر جمعيات ثقافية واجتماعية ولديهم مواقع إلكترونية ومجلات ودور نشر ، ويعقدون مؤتمرات عالمية سنوية في محاولة جمع الشتات المندائي والتعريف بقضيتهم ومنها جمعية ناشطة تتوزع مكاتبها بين مالمو ولندن ونيويورك وهي اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر التي أصدرت كتبا الصابئة المندائيين في الفقه الإسلامي ـ تأليف)ومنشورات حول الديانة المندائية وثقافتها ومن أهم هذه الكتب 2006رؤية وسياحة في المندائية النقية ـ تأليف نعيم عبد مهلهل ـ بغداد)و 2006الدكتور رشيد الخيون ـ بغداد)و (دمشق /2007الصابئة المندائيون ـ حاضرهم وماضيهم ـ تأليف الليدي دراوو ـ طبع دار المدى)و (.(دمشق 2008عصافير الشارع المندائي ـ تأليف نعيم عبد مهلهل ـ

مندائيو هذا الزمان بالرغم من حزن الشتات وعذاباته يمسكون أمل العودة الى منابع الحلم ، ويتمنى كبار مهاجريهم أن تحمل نعوشهم لتوارى الثرى في أمكنة السعادة والحلم حيث ارض الأجداد والضفاف الرافديني الذي يسقي لحظة ولهذا هم يمسكون غصن الزيتون ويلوحون فيه الى أفق التمني أن يعم .بهجة طقس التعميد بنسائم مساء العراق .السلام في البلاد التي نطقت معهم هجائيتهم المندائية وصنعوا من أطيانها ألواح وجودهم ودمى طفولاتهم

بين صابئة حران وصابئة المعدان وصابئة هذا الزمان يضيء الزمن شمعدان الأساطير وتبريكات الأنبياء وأحلام .القصب والماء والترميذا الذي اعتمر البياض طريقا للوصول الى فسحة البهجة في حدائق العشب والسدر والنخيل هم باقون وسيظلون بالرغم من تعاقب الأزمنة وعاصفة العولمة ومتغيرات الآلة والاتصال ،لأن غنوصية الديانة وقوتها ستوفر لهم اتصالا سريا مع تلك السرمدية التي ظلت تنير لهم مصابيح الحياة وليبقوا خالدين مع أحلام .أنبيائهم وكتبهم المقدسة

الفصل الرابع

الإنسان يموت ، الجاموس يموت ، والقصائد أيضاً ..الأهوار

كُلفتُ من قبل وزارة الموارد المائية بطباعة كتابي عن الأهوار والذي نشرته صحيفة الزمان الدولية 2005في عام على شكل فصول ، ليظهر بعد ذلك في طبعتين عراقية وسورية ، ثم صدر عن الوزارة ذاتها سيناريو سينمائي كتبتهُ ، ثم وخلال أقامتي 2007عن دار نينوى في دمشق وبطبعتين عام (قاسم حول)وبعونٍ من المخرج العراقي الكبير في دمشق ، وبدعم من السيد وزير الموارد المائية أصدرتُ مجلة الأهوار والتي كانت تطبع في دمشق وتوزع في ، هو هدية العدد وقد وزع (جنة عدن والحياة الجديدة ..الأهوار)العراق ، ومع عددها الثاني كان كتابي الموسوم ثم توقفت المجلة بسبب انتقال أقامتي إلى ألمانيا .2007مجانا مع المجلة في مهرجان المدى الثالث في اربيل عام وبذلك أنطفت جذوة واحد من أجمل أحلامي من أجل عالم ساحر سعيت دائما أن أبحر في لذته المدهشة منذ تعييني ومرة ثالثة طبعت وزارة التربية العراقية كتابي عن .في الثمانينات معلماً في واحدة من قرى الأهوار وحتى الساعة وصدر عن دار نينوى .2007عام (الأهوار ومكان الحرف الأول ولوح الأيمان)الأهوار وبطبعة ثالثة تحت عنوان .للطباعة والنشر في دمشق

وأينما أكون تكون كتبي عن الأهوار معي ، واعداد ما أصدرتُ من المجلة كمن يرافق عشقه الجميل في أي محطة وبين زمن وآخر وبفواصل قريبة كنت أستعيد أحلام تلك التضاريس والمناخات السومرية في .يرتحل منها واليها مقالة أو نص شعري أو قصة أو حتى خاطرة لحلم سمكة تذرف دموع العطش والملح في مياه ضحلة تعجز الأقدار والدولة أن توصل أليها مياه النهر لتعيش مع عذوبة الموج ولحظة الشوق في شباك الصيادين وحقول الرز ..الخضراء التي كانت تحتفل بنقل دياتها الصغيرة من مكان الى آخر في احتفالات بهجية من الغناء والإنشاد والمرح ظلت الأهوار ومنذ آلاف السنين تمثل مكاناً مثاليا لكائناتٍ من حيوانات ونبات ، فهي مصيف لمن لا يحب الشتاء ، ومشتى لمن لا يحب الصيف ، وكانت ملاذا آمنا لمن لا يحب السلطة الحاكمة ، فمنذ غزو الإسكندر لبلاد الرافدين واستقراره في بابل وحصول منيته فيها ،اشتكى قادته من صعوبة قتال ومطاردة الثوار الذين لم يرغبوا بحكم المقدوني لبلادهم التي تعودت صناعة الإمبراطوريات والممالك منذ سلالة اور الأولى وحتى أحفاد سنحاريب عندما كانوا يصفون تلك المناطق المغطاة بالمياه والقصب بأنها مناطق يصعب على الخيالة الدخول .ونبوخذنصر إليها ، وكان المحاربون العراقيون يصطادون جنوده بالنبال من خلف اشنات القصب والزوارق كمن يصطاد الطير ،

ففضل أن يقف عند حدود بابل وان لا يذهب جنوباً حيث كانت أمنيته أن يجتاح مملكة فارس من خلال أراضي ميسان وبطائح سومر.

عاشت الأهوار التي تعاني اليوم من حزن عولمة القرن الحادي والعشرين وخناجر السدود الكثيرة التي وضعتها إرادات الدول التي يمر فيها نهرا دجلة والفرات وهما من يغذيان هذه المسطحات التي عاشت أزل الحضارة في صناعة الفلك لكي يخلص المؤمنين من عذاب (ع)والأساطير منذ أحلام أونوبشتم الذي يرادف أسطورياً نوح الرب وحكمه على أولئك الذين لم يذعنوا إلى هداية السماء ، وكذا القصة وردت في ذات المعنى في أسطورة الطوفان وهي تتحدث عن أماكن مغطاة في الماء ويعيش أهلها في بيوت عائمة مصنوعة من القصب ويتنقل أهلها التي طليت قيعانها بالقير الأسود الذي كان يجلب من مدينة اور ، وذات المادة كان (الشخاتير)بالزورق الخفيف يستخدمها السومريون في بناء المعابد والبيوت كما نشاهدها اليوم في بيوت مدينة اور وزقورتها الأثرية وسقوف الأقبية في مقبرة اور المقدسة التي اكتشفها العالم الأثري ليوناردو وولي في عشرينات القرن الماضي.

وكانت أغلب المدن الحضارية الأولى هي التي تقع قرب ضفاف تلك المياه المحصورة بين مجري النهرين ، وربما كانت تلك المناطق قبل أن ينحسر فيها مد الطوفان وتأخذ شكلها التضاريسي والجيوغرافي الحالي هي امتداد للخليج العربي الحالي وهذا ما أعتقده وولي أثناء تنقيباته في اور ودراسة طبقات التربة كما أرتنا الألواح الأثرية والمسلات وما نقش على جدران المعابد والأختام إن مدينة اور قبل آلاف السنين كانت تقع على ضفاف الخليج العربي وكانت ميناءً كبيراً ، ليبقى من هذا المسطح المائي تلك الأماكن والتي ميزها غابات القصب والطبيعة الفريدة لحياة أهلها وهم يعتمدون في حياتهم ومعيشتهم على صيد السمك والطير والمنتجات التي يدخل القصب في صناعتها ، فيما تميزت مناطق الأهوار بأنها كانت أمكنة للوعي الإنساني الأول عندما اكتشف الإنسان أفكار صناعة الرؤية القدرية للخلق من خلال محكيات الأساطير والقداسات ،وإنها أيضا كانت مكانا أزلياً لبعض الديانات النازحة إليها مثل الديانة المندائية التي يعتقد أنها تنحدر من أصول مناطق تقع في إيران والمحاذية تماما لحدود الأهوار والبعض يعتقد أنها ديانة سورية .العراقية والتي هي اليوم مناطق الطيب في العمارة وإقليم الاحواز العربي في إيران وربما ثمة تبشير آخر قامت فيه ديانة سماوية أخرى هي الديانة اليهودية ، .نشأت في أعالي الفرات ومدينة حران ومقام العزير الذي يقع على ضفاف دجلة في ناحية العزير قرب قضاء قلعة صالح في العمارة وهو مرقد لكاهن يهودي يعتقد أنه أتى إلى بابل مع الآتين من سبي نبوخذ نصر ليهود أورشليم وجلبهم إلى عاصمته بابل ، وانه ومثله كان ذو الكفل في منطقة .توفي في هذا المكان في رحلة تفقدية وتبشيرية إلى أبناء طائفته في تلك المناطق .الكفل في الحلة وكلا المقامين يتبرك فيهما أهالي المنطقة من شتى الديانات ويزاران في مواسم معلومة

لم يشأ أحد من الطغاة أو الولاة الجائرين طوال أزمنة العيش في هذه البطائح أن يخضع أهلها لمشيئته ومُلكه ، ولهذا كانت القبائل العربية المتمردة على جبروت المستعمر منذ فارس وحتى الإنكليز وما تلاهم من أنظمة حكمت بعد الاستقلال تجعل من الأهوار ملاذا آمنا لتتجنب قسوة المحتل وظلمه ،ومن الأهوار تقود مقاومتها لذلك المستعمر.

كان يهاجمنا :ففي مذكرات القائد البريطاني لمنطقة المنتفك قوله عن الشيخ بدر الرميض شيخ آل بو صالح قوله في البر والحقول وينسحب إلى عمق الهور ، أي أن القصب والماء كان قاعدته الأمينة بعد أن حرقت مدافعنا دياره كلها ومضائفه.

أصبح في نظر الآخرين مكانا للعزلة والابتعاد عن المدنية ، وبسبب هذه النظرة .ميزت صفة المقاومة هذا المكان الخاطئة أهملت الحكومات والأنظمة هذا المكان وجعلته يؤسس لحياته نمطاً من الحياة الصعبة والخشنة ، وتكيف الإنسان في الأهوار في حياته وخضع للطبيعة القاسية وقدرها فكان معرضاً للأمراض الفتاكة والعزلة الحضارية صاحب كتاب المعدان (ويلفرد ثيسكر)ولهذا كتب .عن المحيط ليموت في صمت تلازمهُ قناعة عجيبة وعزة نفس)وهو يصف تجربة العيش من عرب الأهوار الذين يمتلكون التسمية المثيرة للجدل والتفاسير والصفات المتعددة بأنهم كانوا يشعرون مع تأثير حبة الأسبرين التي يتناولونها لأول مرة وتزيل عنهم الصداع بأنها كمن (المعدان يعمل لهم سحراً من الجان ليشفيهم.

المعمرة ، وهو لم يكن (الدشاديش)الذي أطلق على أهل الأهوار لقب شعب (المبطر)لا أعرف أسم المسؤول وعليه أن يعرف عن هؤلاء هم من صنعوا قيمة المكان .يبغي مديحاً لأولئك الناس البسطاء بل تقليل من قيمتهم وخصوصيته ، ومثلت حياتهم في فطرتها البدائية جزءاً مهما من الحياة البكر والخصبة والنقية التي أسست لذاكرة المكان تميزه بين كل بيئات الأرض لتجد أوراق الدهشة تملأ دفاتر وكتب الرحالة والمكتشفين وهم يصفون حياة لا تصبغها ألغاز وجودها القديم ، فلقد كان القصب والماء والسمك والطير والزوارق وحقول الرز تحكي حكاية واحدة منذ حلم الملك كوديا وحتى اليوم.

، ولقد وجدوا في بطانة هذا (أستهزأ منه المسؤول القديم)كلهم كانوا يكتبون عن براءة ترتدي الثوب المُعمر كما

الشعب قيما أصيلة وثبات وحكمة والتصاقا بقدسية الموروث وأزليته ، فعندما درست المستشرقة البريطانية الليدي دراور حياة المندائين فهي لم تذهب إلى حواضر المدن حيث يسكن البعض والأقرب إلى الحضارة كما في مدن البصرة والناصرية والعمارة ، بل ذهبت لتعيش معهم حيث كان يسكن الغالبية منهم في مدن الأهوار في مدن مثل قلعة صالح والكحلاء وهناك عرفت منهم طبيعة المكان وخصوصيته الاجتماعية والروحية لتكتشف أنها قد وجدت شعبا يمتلئ بسمو الروح العزيزة وعشقه لذاكرة المكان وخصوصيته ، لهذا فهي لم تستغرب أن يتعلق المندائيون في المكان كما يتعلق أهله الأصليون من الأعراب الذين عانوا في فترة من الفترات التشكيك في أصولهم وراجت منذ البعيد فكرة داخل المدن القريبة من الأهوار بالخوف والحذر من هؤلاء الناس وخاصة من يطلق عليهم لقب المعدان وربما الأجانب .(أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه)حتى شاع مثل يبدو ساذجا وعنصريا ومغرضا ذلك القول من الرحالة وموظفي الإدارة الاستعمارية البريطانية ، وحدهم من كتب وكشف عن المعدن الأصيل لهؤلاء الناس ، وربما هم قبل غيرهم من وثق بالصورة والكتاب حياة أولئك الناس لترينا المجموعة الفوتوغرافية لكالفن يونغ ، وماكسيل صورا رائعة بالأبيض والأسود لحياة هؤلاء الناس ، وقد أضفت جميع هذه الصور ملحقا في الطبعة الأولى وفيه يمكن أن يستشعر الرائي والناظر طبيعة الحياة ونقاء سريرة الذات التي يمتلكها أهل .لكتابي عن الأهوار الأهوار وكان شيوخهم وعلية القوم عندهم من الحكمة والبصيرة وادارة الأمور بين أفراد العشيرة أو التجمع السكاني بالعدل والمساواة ، وربما رؤية الجوع والعوز تكاد أن تكون مفقودة بين أبناء ذلك الشعب الذي لم يكن يطلب من الحياة الكثير سوى سلامة جاموسته وبقاء جبيشة القصب التي يهجع عندها سالمة من غضب الريح والمياه ، ولكن بعد أن جففت الأهوار وشحت المياه وكما هي اليوم بعد معاناتها الجديدة ، بدأ شبح الجوع والعوز والحزن يظهر على محيا الوجوه السمر لأولئك الناس الطيبين الذين استبشروا مع أحلام العودة لديارهم أن حياتهم ستعاود نشاطها مرة أخرى وإن عليهم أن يمارسوا العاطفة المدهشة مع أنغام القصب ورقصات السمك وتلك .المواويل التي ينث منها مطر الحزن السومري منذ أن تحرك نوح (ع) بسفينته صوب بر الأمان وحتى الساعة لا اعرف خيالاً مزعجاً في أحلامي الجغرافية غير صورة موت شعب و طبيعة واندثار حضارة وانقراض حلم أزلي فإن تصوري عن عودة ممكنة لعالم .ظل وعلى مدى عصور يضيف الى الأمكنة بهجة الأصالة والبراءة والحس التهجير وحرق غابات القصب وغياب أمصال البلهارزيا ولقاح الكوليرا يعيد (لوريات)تعذب من شظايا الحروب و .لي صورة بشعة من صور القتل ، أنها تعود بسيناريو جديد اسمه سيناريو العطش

لا تمنحي صورة العطش سوى مشهد واحد يذكرني بشخصيتين رقيقتين لا يحسنان سوى الخديعة وصناعة مسن هولاكو وتيمورلنك ، فؤلئك الحنونين كحبل المشنقة يدركان أكثر من غيرهم إن صناعة .السيوف وإحراق الكتب العطش يأتي من خلال إتلاف الأنهر ولهذا صبغا دجلة بحبر مكتبات بغداد من خلال رمي آلاف الكتب في نهر دجلة فعكف الناس عن شربه لأيام فساد العطش وتلف الزرع وشحت السواقي ونفرت الدواب عن شرب مائها ، لأن ألم إحراق الثقافة منعها من الاقتراب الى الماء وفضلت أن تموت عطشا ولا تشرب ماءً صبغته أحبار كتب الجاحظ والرازي والغزالي وقصائد أبي الطيب والبحتري وتراجم طاليس وكل ما سُعي الى ترجمته في زمن الخليفة .المأمون من معارف الفرس والسريان والروم وفلسفات الهند والصين وغيرها من حضارات تلك الأزمنة هذا العطش المائي عكس ومنذ تلك اللحظة التاريخية عطشاً روحياً على العراقيين سار معهم منذ دويلات المغول .ومماليكهم وحتى دخول جنود المارينيز أرض العراق

أعتبرالعطش الروحي أقسى أنواع العطش ، وهاهو يضرب منطقة الأهوار بأعاصيره ، وحين يتحد عطش الماء مع عطش الروح فأن اليباب سيحل في المكان وستموت الحياة في كل أشكالها ، لهذا كان السومريون القدماء يضعون آلهة الماء في أول المراتب لأن الماء يمنح للحياة ديمومة الاستمرار ومع الهواء يشكلان ذاكرة الوجود الإنساني ، لهذا بقيت حين أتجول في روح المكان وذاكرته ابحث عن منابع تسقي حلم البشر وأنا أدون على الطين ذلك المثل وهاهما ضرعا دجلة والفرات يقتربان من حافة .لا نعرف العطش إلا عندما تجف الينابيع :القرغيزي الذي يقول .الجفاف بسبب ما يعرف اليوم بمصطلح حرب المياه

وعندما تموت المدن ، يلتحق فيها سوادها المنتشر .أن موت نهر في المصطلح الاستعماري يعني إحراق ألف مدينة حولها ، القرى والقصبات وكل عشر بيوت مجتمعة ، والأهوار تتصل بالمدن من خلال فم النهر إذن هي ربما في طبيعتها قد تموت قبل مدنها وبذلك تتعاكس مع المصطلح ، إنها تحترق قبل الجميع عندما لا يكون هناك ماء ، فالمدن قد تستطيع أن تحفر آباراً في براريها وتأكل من سمك البحر وتعوض لحم الدواب بالدجاج ، أما الأهوار فإن ؟ حتما سيبقى القصب اليابس والأرض المالحة والصمت ..مات فيها السمك والطير والجواميس فما الذي يتبقى لها وانعدام الحياة التي لم تكن لتبتهج في يوم ما سوى مع الموج ورقصته الأزلية التي تداعب جنح البط وموال الصياد .ونعاس قصب البردي

إن الروح :يقول بوذا في واحد من تعاليمه التي وجدتها مدونة على جدران معبد بوذي في مدينة حيدر آباد الهندية

.العطشى تفقد القدرة على تذكر موجة النهر ، وهذا يعني إن العالم سيفقد سيره صوب النور
فالماء بالنسبة لتلك الأمكنة لايمكن الاستغناء عنه .ومثل هذا ستفقد تلك المناطق في عطشها قدرتها على السير ليس للشرب فقط بل إن الفعاليات الحياتية قائمة عليه في مجملها ، لقد كان سكان الأهوار يحملون أينما كانوا ذلك المعتقد الذي يقول نحن من الماء واليه وكأنهم ينسون رؤية الديانات السماوية القائلة نحن من تراب وآدم من فالماء يمثل الحاجة الأبدية لبناء الكيان ومعه لا يشعر الإنسان سوى بالأمان والراحة وعدم التفكير بالجوع .تراب لكن ما نراه اليوم يكاد يكون أشبه بموت بطيء لتلك الحياة البريئة التي توارثت المسرة وذاكرة العقل منذ .والعوز فقديما كان أبناء بطائح سومر يقيمون مودتهم الحياتية مع الماء ، وكان شعار الحياة .بدايات اللوح والكلمة والحلم في بلاد الرافدين تلك الكف التي تحمل الإناء النذري والذي يفيض ماء دجلة والفرات من جانبيه ، في دالة على أن الماء كان يمثل الحياة في كل عناصرها ، وعليه فإن الراغب في إلغاء هذا الشكل المتميز من العالم إنما يقترف جريمة حرب وإبادة جماعية ضد موجدات الوجود الطبيعي الأول الذي رسم على الأرض بدايات التفكير بمساحة سيكون المشارك في تلك الإبادة مجرماً ، وسيكون السد الكونكريتي .الود مع السماء ومع القصيدة ومع الوردة مجرما أيضا ، وحتى تراب السداد والعاجز عن عمل شيء ، فليس قدر تلك الأمكنة أن تموت كل يوم ، مرة من ثوراتها الحالمة وبساطتها والتشكيك في جذورها وانتمائها ، ومرات من العطش ومحاولة إلغاء وجودها الأزلي .ودفع أهلها للهجرة ، كما تنقل اليوم نشرات الأخبار عن بدء سكان الأهوار النزوح عن مناطق سكناهم
إن إعادة مشاهد سيناريو التهجير سيمثل قسوة مضافة الى تواريخ أولئك الناس الطيبين الذين مورست عليهم جميع التجارب والمتغيرات بشكلها الاجتماعي والسياسي والروحي فباتوا أقل مناعة من قبل بسبب تراكم أوجاع الأزمنة ومشاعر اللاحول ولا قوة وسط ضغط أعلامي ونفسي تشارك فيه صورة العولمة الجديدة وبراءة الهاجس الديني والروحي المغلف في بساطة القناعة في خضوعهم لفكرة تصديق وعود المسؤول ومشاريعه التي كنا .نتمناها تنهض مع الفكرة الأممية المسماة العودة الى جنة عدن
ولكن يبدو أننا سنقع في الخديعة التاريخية ونقع في خانة العودة الى جحيم التصحر والهجرة واليباب ،فلا أحد قادر على منع دول الجوار من الهيمنة على ما تريد من الحصص المائية أو تجعل الماء ورقة ضد في مائدة السياسة .أعطونا جنود عبد الله اوجلان ونعطيكم ماء دجلة:كمن يقول وصل الأمر عند الجيران الأتراك القول
واحدة من مفارقات التأريخ أن ترتبط حياة سكان الأهوار في حياة عبد الله اوجلان حيث لا رابط تاريخيا ولا PKKاجتماعيا بين الهور واوجلان ، فالرجل ثوري من أكراد تركيا يقود حركة انفصالية ضد الدولة التركية بأسم تمارس نشاطها في جنوب تركيا في مطلب منه لأقامة حكم ذاتي لأكراد تركيا ، وفي حالات تعبوية معينة تلجأ قواته للمنطقة الحدودية مع العراق لوعورتها وصعوبة قيام عمليات عسكرية ضدها من قبل الأتراك فكان الاتهام الدائم إن العراق يدعم هذه الحركة ويؤويها بالرغم من أن زعيمها اوجلان معتقل لدى الأكراد منذ سنين بعد عملية خطفه من فقديماً مر على خاطر الكثير من أبناء الأهوار أسماء بدت غريبة .طائرة في مطار كينيا من قبل الكوماندوس التركي على مسامعهم ولكنهم بسبب المعايشة والاختلاط والانتباه ألفوها وعرفوا رمزيتها ، وغالبا ما تكون هذه الأسماء ثورية مثل جيفارا وتروتسكي ولينين وغوركي ، وتلك الأسماء عرفت من خلال معتقد المعلمين الذين يتم تعيينهم أو لكن اوجلان يعرفونه الآن مع عولمة الدبابة والسدود .نفيهم الى مدارس الأهوار النائية واغلبهم من الشيوعيين ،فلقد استخدم ضدهم كورقة ضغط في حرب ليس لهم فيها لاناقة ولا جمل ، لكن العطش تسرب إليهم وبانت ملامح الهزال وعودة أمراض الماء المالح والملوث تعود الى أبدانهم وكذلك الى جواميسهم التي ابتليت بأمراض غريبة وبدأت ضروعها تجف وتحول سعر القيمر الى خمسة أضعاف سعره بسبب غلاء الأعلاف والأمصال وظروف التربية التي احتاجت من المربي أن يشتري حتى الماء بواسطة السيارات الحوضية ليوفر لجواميسه قيلولة الماء التي تعودت عليها وتحفظ جلدها من التشقق بعد أن كانت تلك الحيوانات الغنية بالحليب واللحوم تعوم وتغطس وتمرح في تلك المستنقعات الزرقاء منذ بدء خليقة البلاد وحتى بدأ عمليات التجفيف في بداية تسعينيات القرن .الماضي
ويبدو أن المكان ومنذ القدم مرتبط بمزاج السياسة وهوسها الذي لاينتهي ، ويبدو أن أحدا لم ولن يفكر في حياة أولئك المجددين لوعي الحضارة الأول من خلال كون بطائحهم كانت مهبطاً للكثير من رسالات السماء ومكانا مثالياً لحلم الأقلام العاشقة في تدوين أساطيرها ، وربما الأهوار التي ترينا من خلال ما تبقى من جداريات واختام ونصوص مسمارية أنها كانت مكانا مفترضا لجنة عدن ، وأنها وعلى امتداد مسطحاتها المائية كانت مكاناً مهيباً للكثير من السلالات والممالك العظمية وأنها من أولى مناطق الشرق التي عرفت نظم الري وسن القوانين والإبداع وطالما حلم أبناء الأهوار بفك هذا الارتباط لكنهم يجبرون على أن .الحرفي وغير ذلك من المناشط الحضارية الأولى تكون لهم إزاء هذا الإجبار الحياتي أن يتخذوا من المقاومة سبيلا للتخلص من الهيمنة السياسية ومحاولة إخضاع ربما لأن أهل الأهوار وبسبب جغرافية وجودهم وبيئتهم يمتلكون القناعة إن الانتماء .المكان لسلطة الفرد والحاكم

الى الماء والبساطة والعزلة اجمل بكثير من الانتماء الى المجتمع الحضري الذي يتطلب منهم الولاء للفرد والعيش ضمن الأنماط المجتمعية الصارمة التي قد لا تُقدر حلم سكان الأهوار بمدى اعتناقهم لفكرة مطلق المكان الذي لا التي يضغط (العطّابة)يحوي سوى الطير والقصب والماء والسمك والقدرية العجيبة التي يعتقدون فيها إن جمرة .فيها على راس المريض رغم نارها المستعرة هي وحدها من تشفيهم من كل الأمراض

لن تستطيع أن تشفي مرض هذه البقاع سوى عودة الماء إليها بتلك الوفرة كان فيها فيضان (عطّابة)الآن مليون دجلة والفرات يغذيها في أيام ربيع العمر ويحولها الى جنة من البط والشبوط والأبوذيات وطقوس فرح تعود بهم الى تلك المواسم القديمة التي كان يرش فيها رذاذ ماء النذر على مواكب الأعراس والختان والكهنة وطقوس التعميد المندائي وتلك التي درج عليها شيعة الأهوار ومنذ مئات السنين على تذكر واقعة الطف ويومها السابع من وهكذا .خلال ملء القرب المثقوبة بالماء وامرارها على الرؤوس ليتذكروا عطش الإمام العباس (ع) والتبرك فيه يرتبط مرة أخرى عطش روح المكان بعطش الثورة ونكران الذات ، فيتلامسا لتبدو لنا المأساة بشكلها التراجيدي حتى تحس أن المكان يضج برموز التحول والمتغير والمخاض منذ زمن ثورة الحسين (ع) وحتى قبعة جيفارا وبندقية حمد ابن الأهوار الذي خلده الشاعر مظفر النواب في قصيدته الخالدة والمغناة بصوت المطرب ياس خضر .(الريل وحمد)

عطش العباس وعطش الأهوار تعني في الذاكرة الجمعية للسكان صورة واحدة لمأساة ظلت تلاحق القضية الروحية ولهذا تستعاد صورة العطش العاشورائي مع صورة عطش تلك القرى التي .لمن سكن في وجدانه الى المذهب اكتساها الطين والقصب ولكنها داومت على تعليق الرايات السود على بواباتها كدليل على فكرة التواصل مع تلك المظلومية القديمة التي عانى منها الحسين ـ عليه السلام ــ واهله وتحمل بسببها العطش والقتل والسبي ، والنتيجة مدن تعطش وأمامٌ عَطشَ وكائنات حية تعطش والمحصلة صورة لتراجيديا سوداء رافقت المكان وأثارت .فيه شجون وجوده منذ الحكم الأموي والى اليوم

هذه المدن المتناثرة مثل دموع المطر على نوافذ العوز بقيت تقاوم حتى حرمانها من سبل الحياة الكريمة ، فأكثر أرياف العالم تمثل المناطق الغنية في بلدانها إلا أرياف الأهوار ومدنه فقد كان الفقر ينخر في أزمنتها مثلما تنخر الخشب وجذوع النخيل والقصب الذي يتألم من شح الماء ونضوبه ، فلم تعد تحتفي بعيد كما في (الأرضة)دودة (الحَمارْ)بقية أنحاء أخرى من العالم ، ويمكننا أن نضع حزن واحدة من هذه المدن العطشانة والمسماة مدينة .نموذجا لقراءة حزنها في اللحظة التي كان العالم يحتفل بأعياد الميلاد ورأس السنة الجديدة

هكذا كنت أقرا عطش تلك المدن التي كنت أعيش في فردوسها القديم وامارس هواية صناعة الحلم ، وحين حطت وقراها المائية وحزنت لبلاد (الحَمارْ)راحلتي في مدن النيون والأمن والهدوء وفي ليلة راس السنة تذكرت ناحية تمتلك اكبر مخزون للنفط في الأرض ولم تستطع أن توفر لمدنها حلم شجرة الميلاد ومصابيحها الملونة برغبة الأطفال والآباء في حياة هادئة وكريمة ، حياة لا يموت فيها البشر من الشظايا والعطش والرصاص الملثم وأقبية الزنازين ، فكانت قراءتي عن حلم مدينة تريد أن تتخلص من عطشها وحزنها كما يريد الطفل الأوربي هنا أن :يتخلص من سعادته الطافحة بالنيونات والألعاب النارية لدورة سنة جديدة

أو كما يسميه أبناء (نيكلاوس)أو الأب (سانت كروز)هنا في أوربا ، وفي خلسة من النجمة المستيقظة سينسل عبر النوافذ العلوية لغرف الأطفال ، بدلته الحمراء ولحيته البيضاء وكيسه المليء (بابا نوئيل)الأهوار العراقية بالهدايا ، ويضعها قرب وسائد النوم وهو يتمنى لهم ميلاداً مجيداً ليوم ولد فيه السيد المسيح ع ، فقط لينثر بذرة ..الخير على الأرض وتنمو وردة السلام

أعوام يمضي هذا الشيخ الطيب في طرق كلها ثلوج (5)من بيت لحم في فلسطين إلى وسادة مريم أصغر بناتي وسرف دبابات وألغام مصائد المغفلين وشوارع لم تزفت بعد واحياء صفيح لجياع وقرى من القصب والطين وفيلات فارهة في منتجعات أثرياء الرحمة ليصل إلى هذه المدينة الهادئة في الريف الألماني ويسأل عن سومرية بريئة هجرها مزاج الزمن المتحاصص وغياب الشعور بالراحة وأنت ترتدي القميص الملون ليهديها قطعا من حلواه الشهيرة ودبهُ القطني السمين وقبلة إنسانية ليس فيها شهوة ، هؤلاء الذين يختطفون الطالبات الجامعيات في بغداد ويفعلون ما يفعلون ببأس البرابرة وبراءة المغول وتشريع ما شرعه الله في نفوسهم المريضة وبالتالي يطلبون الفدية من ذويهن ، وربما إذا كانت المختطفة غير مسلمة يجبرونها على نطق الشهادتين ، فيصير العرس .نورانيا والمختطف الطيب يصير مثل فاتح ومبشر وقديس

(كم بغداد 360)تقع ناحية الحَمارْ في منطقة هور الحَمارْ ضمن الحدود الإدارية لمحافظة ذي قار ـ جنوب العراق ، وهو واحد من اكبر الأهوار العراقية يلتقي شمالا بمسطح مائي مع هور الحويزة في الجانب الإيراني عبر امتداد هور الجبايش ، وعاش هذا المكان تاريخاً مضطرباً منذ اقدم العصور بسبب التكوين المجتمعي المنعزل لسكان الأهوار ، ولهذا كانوا ومنذ الأزل بعيدا عن أي خدمة حضارية ومدنية ، ولكن هذه العزلة صنعت شعباً عنيداً احب

حياته وطقوسها ونال القناعة الأزلية بأن ما يأتي به الله هو ما تقدره قناعة الروح ولهذا كانت تفتك بهم الأمراض العثماني إلى مدافع النمساوي لم ترهب فيهم لحظة (الدان)ويموتون بصمت وقناعة ، وحتى شظايا المدافع منذ بتجفيف هور الحَمارْ ، وهو أعلان (الموقر)الوجود ،لكن وجودهم اهتز مرة واحدة عندما صدر الأمر الرئاسي رسميا وعلنيا في اغتيال طبيعة والذهاب بها قسرياً إلى الانقراض حتى صار في قناعة أحدهم أن تصبح الأهوار مثل الديناصورات منقرضة ولا تعود إلى الحياة أبدا ، وصار الحنين إلى صورة سمكة الشبوط مثل ذلك الذي يحن إلى .أغاني الشباب وذكريات عشق الصبا

أهل ناحية الحَمارْ بسبب شمول عالمهم برحمة الموبايل والصحون اللاقطة التي علت سطوح بيوت الطين والقصب في منظر لا يخلو من المفارقة أن تدخل روتانا وأغنياتها الساخنة بيوت أولئك الفقراء صاروا يشاهدون العالم كله الرطب عندما يحتدم الحوار حول (الشرجي)وهم ممددون على سوابيط القصب ، ولا يهمهم لسع البعوض ووخمة .العراق في برنامج صاخب كالأتجاه المعاكس

لقد فتح العالم لهم نوافذه ، ولكن هل استفادوا من محاسن العولمة وإشراقة ابتسامة المذيعات والإعلانات الخرافية ؟ .عن تسويق عطر فرنسي أو فرشاة أسنان

أظن انهم بسبب تراكم قرون الفطرة والعزلة مازالوا مشدودين إلى تلك البهرجة ، وبعضهم صار يترك علف في المسلسل التركي المدبلج ، وربما صاروا يحلمون كما خلق الله (مهند)جاموسته لأجل أن يكمل قصة الوسيم لكن بابا نوئيل يخاف على نفسه من مخاطر .في العالم المتمدن بأن يأتي إليهم سانت كروز بهدايا الميلاد المجيد الطريق والفتاوى ، وأشياء كثيرة قد يشك فيها مدير ناحية الحَمارْ مثلا أنها تفتح عيون أبناء المدينة فيكثر الطالب يتمنى قبل الهدايا أن تتحسن أوضاع :والمطالب ، وعليه أنا نفسي تمنيت لرجل الثلج أن يذهب هناك ، فكان رده الناس هناك ، يشربون الماء الصالح للشرب ، وتصلهم الكهرباء ، تعبد الطرق وتبنى المدارس والمراكز الصحية ، فليس من المعقول أن يملك ابن ناحية الحَمارْ احدث جهاز موبايل وهو يسعل في الصيف والشتاء ومازالت آثار ومازال العطش ينهش في .البلهارزيا ظاهرة عليه ، ومازال طاعون الماشية يهدد جواميسهم وما يقتاتون عليه .أمكنتهم التي ما تعودت يوما على فراق الماء

ربما الدولة مثل بابا نوئيل تفكر بإنقاذ هكذا عالم وضعته اليونسكو ضمن محمياتها الدولية ، وعليه ينبغي أن تصير هي المعمر لهذه الناحية وغيرها من مدن الأهوار ويصبح السيد وزير الدولة لشؤون الأهوار هو بابا نوئيل ، لتكون هداياه بدلاً من النساتل والدببة والعصافير ، مدارس حديثة ومرافق سياحية ومشاريع أعمار ، أهمها مجمعات سكن .لا يدخل من نوافذ بيوتها البعوض والحرمس ورائحة روث الجواميس

هذا الشعب الأزلي ، والذي صمد مع حضارته كل هذه العصور ، يحتاج مني أنا وسانت كروز والأمين العام للأمم .المتحدة التقدير والثناء

هكذا كنت أحلم من أجل تلك المدن التي فقدت عذريتها وسحرها بسبب قدر البلاد وطموح ولاتها واحزانها التي صنعها براءة وفطرة الولاء للمرجع والمذهب وحسن النية تلك التي تزامن وجودها في الذات العراقية منذ أن وطنت عليهم)أقدام آدم ع هذه الأرض ومنحها من بعده لذريته الفاضلة نوح وإبراهيم ولوط وأيوب ويونس والخضر وغيرهم من أنبياء وقديسي بلاد الرافدين ، من ولدوا على ترابها ومن وفدوا إليها مبشرين ومصلحين (السلام .وأباطرة وملوك واصحاب صحائف شعر وفلسفة وحكمة وأساطير

المدن التي كانت وما زالت تمسك رباطة الجأش وترفض أن تموت لأن وجود هكذا مدن مرتبطٌ بأحلامها دون سواها فقد أسكنتها خصوصية بيئتها وتاريخها مثل هكذا هواجس عاشت معها تتحمل تداعيات كل ما كان يحدث حتى إنها امتلكت ريادة احتضان واحدة من أقدم المقدسات الغنوصية في هذا العالم وهي الديانة .فوق هذه الأرض المندائية التي تعتبر المضاد الروحي لهاجس العطش كونها تعتمد في ممارسة طقوسها والتعميد على الماء أولا ، وهذا يعني أن المندائيين احتموا في المكان لأنه يمتلك الماء الوفير ولم يكن في فكر أي واحد منهم أن يلف العطش تلك الأماكن وتختفي قراهم ومحلاتهم أو تكاد تضمحل وتعاني من الكثير من إشكاليات وجودها الحضاري والوطني فوق تلك الأماكن ، ومثلما دعت اليونسكو للحفاظ على بيئة الأهوار وخصوصيتها ضد ما يلحق فيها من أذى من تجفيف وتعطيش وتهجير تتعرض المندائية أيضا ، فهي تلتصق بتاريخ المكان حتى اقدم من ساكنيه الحاليين إذ زامن المندائيون أهل سومر واكد في مشاركة العيش ولديهم ما يثبت من الكتب والنصوص القدسية انهم أتوا من ظهرانية آدم ، ولم يبرحوا المكان إلا عندما كانت الظروف القاهرة تجبرهم على ذلك ولكنهم سرعان ما يعودون فليس هناك من أمكنة تقتل عطش المندائي سوى تلك البطائح التي تؤوي البط الذي يفضله غذاء والرز الذي يصنع منه غذاءه المقدس والماء الذي يمارس فيه التعميد من زواج وموت وولادة واكتساب الطهارة للجسد وتعميد رجال .الدين في درجاتهم الكهنوتية المختلفة

فكانت تلك الدعوة الى المنظمة الدولية قد حملت من كاتب المقال شكلها التالي إزاء ديانة وطائفة تريد أن تتجذر أبداً

:مع المكان ولا تريد أن تموت عطشا أو تهجيرا أو ذبحا طائفياً
المندائيون طائفة غنوصية يصبغُها صفاء قناعتها أن النور للروح قبل الجسد ، وللفردوس قبل حياة الأرض ، ويعتقدون أيضاً أن الذهب زينة الدنيا عندما يكون من عرق الجبين ، وهمسة العاشقين ومهارة أصابع وهم اليوم في العراق يتناقصون ويشحون كما ضفاف يعطش لجريان الماء ، وأظن أن العراق لن يكون ..المندائي فهم يمتلكون في هذه السهول والبطائح أزلاً لايُعرف .عراقاً بدونهم أو بدون غيرهم من سكان البلد الأصليين تاريخه لأنه يعود حتى الى أول الأنبياء ، أي انهم كانوا حتى قبل ولادة حرف الكتابة ، وكانوا في أزمنة غابرة أقدم يسكنون بطائح الماء ، وينعزلون في خشوع صلواتهم ، ويتجولون بين القرى المتباعدة في .حتى من الزقورات مدن القصب والسمك ، يقرؤون الطالع ويشفون الجرح ، ويصنعون من لمعان المعادن ابتسامة النساء والمخشلات والأغراض المطلوبة لبيت الزوجية ، ويُحتمل أيضاً أن المندائيين الصناع الأوائل للكأس النذرية التي .جعلها السومريون شارة وجودهم عندما رسموها والفراتان يفيضان منها .
والمندائيون الأقرب الى الماء الطاهر كونه ضرورة من ضرورات التعميد ، فقد يسودُ الظن انهم ليسوا صاغة للحليَّ فقط ، بل كانوا من صناع المنجل والمطرقة والأواني التي كانت تجرى فيها مراسيم التعميد وطقوس العبادة ، وربما حتى قيثارة شبعاد بصندوقها الذهبي المزخرف بالأحجار الكريمة والعاج قد صنع وصمم من قبل . (ع)مندائي ما كان يعيش مع ملته بين ظهراني أهل سومر وحتى قبل أيام إبراهيم
وهذا دليل أن صحت . (ع)وقد فُسر التصاقهم بالماء ، بأنه قد يعود في أصوله وجذور المعتقد الى طوفان نوح تلك المرجعية ، على أنهم من الموحدين الأوائل ، وهذا التوحيد الوثوق فيه تأكد من خلال الذكر الحكيم في أكثر إن الذين))من آية عندما ساوى الصابئة مع أهل الذمة من النصارى واليهود وكما في سورة المائدة قوله تعالى آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم ، هذا التشريف الإلهي يمنح الطائفة وثوق القوي في الدفاع عن خصوصيتها وديانتها ووطنيتها ، بل ((..يحزنون أن المندائي لن يحتاج إلى أي حجة أخرى لوحدانيته بالرغم من أن كتبهم المقدسة والمتوارث من أدعية الصلوات ويعني الكنز العظيم ، فيه الكثير من السُور والتلاوات (الكنزا ربا)والتعميد وأهمه ما جاء في كتابهم المقدس والأدعية والتصوير والقصص والحكم والشواهد ، ما يدل على أن هؤلاء القوم ينتسبون الى الفكرة السماوية والذي يتمعن في قراءة آيات الكتاب وسوره سيكتشف ..، ذريته ليكونوا صالحين (ع)الأولى التي بشر فيها آدم القيمة والمعنى والدقة في تعامل المندائي مع خالقه ، لأن تعاليم الكتاب لا تحيد عن الذكر ومشاركة الإله الواحد في جميع أفعالنا حتى التي تأتي بواسطة الملائكة الصالحين ، وهي في اغلبها تقود المندائي الى ديمومته وصلاح ، الذي يعتقد فيه المندائيون روحاً نورانية تهدي الى الصلاح والخير (زيوا)نفسه ، كما في الوسيط النوراني وكان (ص)والفضيلة ، كما في الملاك جبرائيل عند المسلمين والذي نقل رسالة الوحي الإلهي الى النبي محمد .وسيطا لتلاوة ما يؤمر به النبي ويُوصى ويُنزل من آيات القران الكريم
يُوثقُ المندائيون تواريخهم بشيء من الحذر والحصانة ، لشعورهم بأن الأزمنة بتعاقبها لم تكن عادلة معهم ، أي أنهم بسبب عصامية الحفاظ على الإرث وتحاشي تجربة الاندماج الديني والمجتمعي مع الحضارات الأخرى ، ولإصرارهم على الإبقاء على الإرث بذات الصفاء والتداول الحَصري بين الطائفة ، وعدم تأثرهم بأي متغير ديني وطقوسي وتقبلهم الصامت لكل فعل ورد فعل إزاء ما يؤمنون به ، تحملوا الكثير من المصاعب والإهمال وبعضها وصل الى حد المجازر ومحاولة إفنائهم بحجج تأخذ طابعاً دينياً في بعض الأحيان وعرقياً متطرفاً في أحيان أخرى ، وفيها الكثير من التجني على أساس أنهم من عبدة النجوم ، والبعض ادعى أنهم من ارث الزرادشتيه مستنداً الى الأصول السكانية الأولى لهذه الطائفة عندما كانت تجمعاتها السكانية في منطقة دهلران والبطائح الممتدة في وبعضهم أستند الى تأويل بعض العادات والطقوس دون .منطقة الطيب والأهوار المشتركة بين العراق وإيران معرفة الجوهر والمدونات المقدسة لهذه الطائفة ومنها كتاب الكنزا ربا وتعاليم يحيى وغيرها ، ولم ينتبهوا في هذا التعامل القسري الى أي نص قرآني يؤكد على أن الصابئة من أهل الذمة ، وهم في هذا موحّدون ، وتلك مسألة أخذت من دراستها وطراً في محاولة السيد علي الخامنئي دراسة تاريخهم ومرجعيتهم الدينية ، وله في هذا الأمر فتوى قاطعة واستنباط موثق في رسالة بحثية على أن الصابئة المندائيين أصحاب كتاب وهم من أهل .التوحيد
لم ينفتح المندائيون على ضرورة التعريف بجوهر ديانتهم إلا في أواسط القرن العشرين عندما سمح مشايخهم المختصة بالدراسات واللغات الشرقية القديمة بالإطلاع على بعض أسرار (الليدي دوورا)للمستشرقة البريطانية الديانة والمعتقد والعيش معهم لمراقبة ممارسة هذه المعتقدات عن قرب ، كما سُمحَ لها بالإطلاع على محتوى الكثير من الكتب المندائية المقدسة ، واغلب معايشتها مع الطائفة تلك التي قضتها في منطقة الكحلاء في العمارة وبعض المناطق وبمساعدة كبير مشايخ الطائفة في العمارة ، وخرجت بحصيلة وفيرة من المعلومات والانطباعات

دونتها في كتاب ونشرته ، بعد أن ألقت الكثير من المحاضرات في المعاهد والجامعات البريطانية ، وهي تتحدث عن هذه الطائفة ومكوناتها الاجتماعية والدينية ، وقد ترجم الكتاب من قبل بعض المثقفين المندائيين في مقدمتهم وصدر في اكثر من طبعة وآخرها الطبعة التي صدرت عن دار المدى في (غضبان رومي)المربي المرحوم دمشق عام2007.

اليوم هذه الطائفة العريقة والتي يكن لها العراقيون الاحترام في مجمل أعراقهم وطوائفهم وخاصة الطائفة الشيعية التي جاورتهم وتعايشت معهم على مدى عقود وخاصة في مدن الأهوار وقراه ، تتعرض لخطر الانقراض داخل الوطن الأم. بعد أن أخذ شتات الآلاف المؤلفة من العوائل المندائية في هجرة تكاد تكون جماعية بسبب النظرة القاصرة والمتطرفة التي ظهرت بعد الاحتلال تجاه الاقليات والأعراق الدينية مشمولة بالكثير من الآراء الباطلة والتكفيرية والوحشية وصل الى الحد اغتيال الكثير من أبناء هذه الطائفة وبعض مشايخها وخاصة في مدينة بغداد ، مما اضطرهم الى الهجرة عن بلادهم وهم الأكثر شوقاً للبقاء فيها ، والمساهمة في رقيها بعدما كان للسجل الحضاري العراقي أسماء مندائية كثيرة طرزت عليه إبداعها وتألقها حيث يشهد للمسيرة التربوية الحديثة في العراق منذ نشأتها في أواسط القرن التاسع عشر ظهور طاقات علمية وتربوية ساهمت في تربية النشء الجديد كما تتشرف الطائفة أن. وخاصة في مدارس الجنوب العراقي وفي الأخص محافظات العمارة والناصرية والبصرة يكون من بين ظهرانيها العالم الدكتور عبد الجبار عبد الله أول رئيس للجامعة العراقية في العصر الحديث ، وغيره من مبدعي الكلمة والقلم والطب والفلك والفن والعلوم الأخرى.

إذن المندائيون وعرب الأهوار كانوا يشكلون وحدة المكان السكانية بالرغم من انهم أقلية تتجمع في مساحات لا يشاركهم فيهم السكن من غير ملتهم ، ولكنهم أقاموا مع المحيط السكاني المجاور علاقات حسنة وساهموا مساهمة فعالة في تطويره وتحضره عندما كان المعلمون المندائيون هم من رواد النهضة التعليمية في مدارس الأهوار الذي شاع انتشارها في أربعينات وخمسينات القرن الماضي عندما بدأت الدولة في الإكثار من تأسيس الوحدات الإدارية في تلك المناطق من أجل المساعدة في إيصال الخدمات الاجتماعية كالتعليم والصحة والبلدية بعد أن نبهت الدراسات والرحلات والمعايشة التي قام فيها الكثير من الأجانب الى الوضع المأساوي لسكان تلك المناطق.

نشأت حواضر مدن الأهوار ولكنها لم تتطور وظلت معاناتها في نقص الخدمات توازي تماماً معاناة تلك القرى المائية العائمة في وسط الهور واطرافة ، بل صارت بعض تلك الحواضر الإدارية تضايق حياة تلك المجتمعات المائية عندما شكلت فيها مراكز الشرطة والمقرات الحزبية وثكنات الجيش وغير ذلك مما لم تتعود عليه تلك المجتمعات ، فإلى ستينات القرن الماضي كان الكثير من سكان الأهوار ممن يفضلون عدم مراجعة الدوائر المدنية للحصول على وثيقة تعريف لشخصيتهم فهم يولدون في المكان ويموتون في المكان ذاته ولم يتعودوا السفر والخروج الى ابعد من اقرب حاضرة مدنية ليراجعوا فيه المشفى في حالات طارئة وخاصة فقط.

لهذا فإن الدعوة الى إبقاء خصوصية المكان وروحه المصبوغة بالبساطة ورغبة الانتماء في الطبيعة البسيطة الهادئة ينبغي أن توازيها الرغبة في إنعاش المكان وإيجاد الحلول لبقائه مكاناً مائياً يحتضن من سكنه من دهور بعيدة ويوفر لهم ما تعودوه من الحياة منذ أزمنة أجدادهم أهل سومر وحتى اليوم.

دعوة هي أهم ما يفترض أن يشغل بال الدولة بعد الأمن ، فإحياء المكان هو جزء من أحياء واحد من أهم المشاريع الوطنية على أساس أن هؤلاء الناس قد دفعوا ثمن الإصرار على البقاء وعدم مغادرة ديارهم إلا عندما هددها العطش والجفاف وبذلك يكون سكان الأهوار من ضمن الشرائح الاجتماعية والسكانية التي تعرضت للإبادة ،فإذا كانت المدافع وسدود ألامس أبادت فيهم رغبة العيش في موطنهم وهجروها عنوة ،فإن العطش الذي يعاود المكان اليوم هو جزء من إبادة جديدة.

أنه فصل من دراما وتراجيديا وطنية تسيدها العطش ويتألم فيها الإنسان والحيوان والنبات الطبيعي وسيؤدي هذا بالطبع الى اندثار وانقراض واحدة من اقدم أمكنة التحضر الإنساني ، وسيفقد المكان خصوصيته ويصبح تراث المكان رهين قاعات المتاحف كما الحضارات التي كانت تعيش عليه.

لأجل هذا سيظل جزء من أمل السنونو القادم من مناخات البلطيق الباردة والليل الاسكندنافي الثلجي أن يذهب العطش بعيدا عن تلك الأماكن الساحرة ويعود في الشتاء القادم ليجد الماء يزهو وسط سير المشاحيف واغنيات مربي الجاموس وصيادي الأسماك والأطفال السمر الحفاة.....

الفصل الخامس

.....مقدمةٌ لتاريخِ مدينةِ الناصريةِ

أتخيل حياتي التي ذهبت كما غيمة شاخت وناحت وهامت على عشب الذكريات تطرز للشيب دمع التوجع في ابتعاد صعلكة العولمة وشخير الدبابات والورد الذي :البلاد ، وحزن العباد ، وأشياء أخرى يسميها مالك ابن الريب ...يرتدي الشورت القصير ويكتب بلاتينية قديمة أبيات الابوذية وخطابات لينين

لم أجد في لساني اليوم عذوبة النطق وقد فارقت الضاد بحكم القوي .في اللغة أعذب الكلام ما ينطقه القلب لا اللسان وهاجرت إلى قاموس غوته أفتش فيه عن جملة أدبر فيها حالي أمام الجميلة موظفة دائرة الهجرة ، فيما قلبي خفت خفقان الحلم فيه بعدما ابتعدت أصابع الشوق عن ملامسة خد الموجة ودمعة العصفور ورصيف الشارع وفرن هو المطر اليومي وعجائز بمظلات مزركشة ، وفرقة نغماتها مصنوعة من ..ما تلامسه هنا ..الصمون الحجري أزمنة الفاينكغ وليس فيها شيئ من بهجة خريف الفوانيس ومواسم حصاد القمح ونواح شهداء الحروب وشاي ...المقهى

بقيت تلك الأساطير عند من ظلوا هناك يلوكون حسرة لم الشمل وعودة شاشات السينمات الصيفية والكتب المستعارة من المكتبة العامة ، هذا البقاء الذي وفر لهم مساحة قليلة من الأمل بأن يعاش العمر كما تريده أفئدة القلوب لا كما تريده الفلسفات الفجة التي تعقد بأن كاتم الصوت والخنجر الغادر والعودة إلى داحس والغبراء هما .الحل الأمثل لصناعة مملكة تعدد الزوجات والولاية والوصاية وماعون الثريد

أولئك الذين تركتهم هناك ، الصديق والعشيقة وعابر السبيل وزميل الدائرة ومؤذن الجامع وشرطي المرور وبائعة القيمر والقهوجي وعضو قيادة الفرقة السابق وسائس عربة الخيل وبائع الصحف اليومية يعيشون أزمنتهم بقدر ويعني هذا انهيار الحكم السابق ومجيء المحتل (سقوط النظام)مركب ومرتبك نتاج ما نسميه في التداول اليومي ومعه الساسة الجدد الذين بشر بهم رامسفيلد ونتمنى أن لايبشروا به ، لأنه كما نابليون جاء بمعادلة الرياضيات ولكن عن طريق حربة البندقية ، ولهذا تاه هؤلاء الطيبون بين القبول والرفض وساعات القطع المبرمج الذي وفي كلتا الحالتين فالمتمنى لن يأتي كما المشتهى ، الذي .يعانون منه من تسعينات القرن الماضي وحتى الساعة يجيئنا دائماً ما كان يجيء قبلنا لأهل سومر وبابل وآشور ، واغلبه خيول لغزاة وحكام طغاة وشيئ من خيال جنائن

معلقة وأماسٍ لربيع قصير كتبنا فيه الأساطير وقصائد الشعر الشعبي وبعضا من دواوين الشعر الحر وأغنيات الريف ، وغيرٍ هذا فنحن مسحورون بالهاجس الصعب والذي فيه اكتشفنا الكلمة وبسببها دفعنا الثمن غالياً منذ احتراق أور وحتى احتلال بغداد.

بناها مدحت باشا وهدمها جنرالات . (كلم جنوب العاصمة بغداد 360)تقع مدينة الناصرية في الجنوب العراقي الحروب والمقاولون الجدد وغبار موسم الصيف الطويل ، وبالرغم من هذا فهي واحدة من مدن الابتكار الكوني إذ تفتخر بأنها واحدة من منازل الخليقة التي آوت بحنان الرب هواجس لطفولة أكثر من ولي وقديس ونبي ، ومنهم كم عن المدينة ، وفي واحدة من قصباتها سطر أيوب 15إبراهيم الخليل الذي ولد في أور التي تبتعد بظلالها الرملي أسطورة الصبر السومرية ، واشتغلت ذاكرة البشر على كشوف الحضارة ، من الكتابة والنحت والفلك وحتى صناعة الإمبراطوريات.

بنيت المدينة في القرن التاسع عشر ، وبهندسة رجل بلجيكي خططها باستقامة ممتدة على طول أذرع الأفق ، لتصير شوارعها امتداد المستقيم تحت خط العين والبصر ، هذا الخط الذي مشت عليه خواطر أبناء المدينة من المبدعين ، وكانت الحنجرة الرخيمة أول نتاج أحلامها بفضل الطبيعة الساحرة للمكان المظلل بغابات النخل الغافية فكان القرن العشرون هو قرن التحولات للمدينة عندما .على طول نهر ضفاف الفرات الذي شق المدينة إلى نصفين أسست فيها المدارس ، واحدة للذكور وأخرى للإناث ومن بين معلميها العرب واليهود والصابئة والمسيحيون ، وهذا دليل على أن المدينة منذ بواكير وجودها حديث كانت مدينة للتآخي والإلفة بين المذاهب والأديان ، وكانت فيها محلة كبيرة لليهود وأخرى اكبر للصابئة المندائيين وفيها عوائل كثيرة من أصول فارسية وتركية وكردية وهندية الواقع حتى هذه الساعة قرب صيدلية الحكمة في (علي دنبه)وحتى عوائل أوزبكية أو قوقازية كما في بيت فيما يعد الشاعر المعروف عبد القادر الناصري .شارع الحبوبي وهم من سكنة المدينة منذ مطلع القرن الماضي رائدا للحداثة الشعرية في المدينة ومن المجيدين في كتابة الشعر وهو أصلا من عائلة كردية نزح أبوه من مدينة السليمانية وسكن الناصرية.

ولدت مدينة الناصرية من عاطفة الوالي ونارجيلة المتصرف ورغبة العثمانيين في إغراق المكان لحظة التمرد والعصيان ، لهذا كان تأسيسها بمكان اقل من مستوى النهر ومناسيب فيضانه لرغبة في لجم ثورات أبنائها بثورة الماء فكان عليها أن تعاني وحتى ستينات القرن الماضي من الفيضانات الموسمية ويتذكر أهل المدينة ، غضب أبو جداحة وليالي السداد ومواويل القمر في الليل الذي كان يحتضن سهر الأبناء على مدينتهم..

الغريب إن أغلب الذين يخططون لتأسيس المدن يتركون يوميات التفكير بولادة المدينة منذ حفر أسس بناء أول بيت أو مبنى وحتى إكمال بناء السور الذي يحميها ، لكن المهندس البلجيكي لم يترك ورقة واحدة ولم يعرف عن يومياته في المدينة وربما خططها دون أن يرى المكان وبالرغم من هذا فقد منح المدينة حداثة التمدن لتكون شوارعها دون أزقة مختنقة ولها امتداد يتسع مع الخطوة ، وبمحاذاة ضفتي الفرات أسس أبنية وشارعا طويلا ليأتي ناصر باشا السعدون ليضع يافطة المتصرف الأول (السراي)وعلى مسافة ليست ببعيدة بنى دار الحكومة للمدينة وليبني أول جامع فيها مازال قائماً حتى هذه الساعة ، ومن ثم نمت المدينة كما تنمو سنبلة القمح ولتعيش عمرها بين مد وجزر وليسكنها الفقراء والأغنياء على حد سواء ولتهرع إلى ليلها الساحر بظلال النجوم أحلام الريفيين الذين ملوا أزمنة الجفاف ورخص الغلة ليعشوا فيها عمالا إجراء ، أما موظفوها وأغنياؤها وطبقتها الوسطى فقد تعددت مذاهبهم وأصولهم بين اسر بغدادية ويهودية وفارسية وتركية وغير ذلك ، غير أن النسيج الاجتماعي في المدينة ظل يمتلك أغلبية الانتماء من أولئك الذين قدموا من ريف عشائرها المحيطة من بدور وغزي وحسينات والأزرق وغيرهم من العشائر الأخرى ، فيما أسس الصابئة المندائيون والذين كانوا يسكنون مدينة سوق الشيوخ ، أسسوا لهم في المدينة محلة سكنوا فيها بمحاذاة النهر كما أسسوا لهم في قلب المدينة سوقاً يمارسون فيه مهنتهم الأزلية في صياغة الذهب والفضة ومازال قائما حتى اليوم ويسمى سوق الصياغ الذي زحفت إلى حوانيته اليوم مهن أخرى من أناس ليسوا مندائيين واغلبهم من الحدادين وبائعي المواد الإنشائية ، ولم يبق من محلات الصاغة المندائيين سوى القليل وذلك بسبب الهجرة الجماعية التي قام فيها مندائيو العراق نتيجة الأوضاع الأمنية السائدة وبعضهم هاجر العراق في زمن النظام السابق واغلبهم من المطاردين من الشيوعيين بعد انهيار وكان لهم كما لبقية سكنة المدينة من مسلمين ويهود .الجبهة الوطنية منتصف السبعينات من القرن الماضي ومسيحيين دور كبير في دفع عجلة التمصر والتحضر في المدينة عندما رفدوا المدينة بأجيال من المتمدنين واغلبهم من المعلمين الذين كان لهم الأثر الكبير في تنشئة الأجيال وخاصة في تعليم الرياضيات والقراءة الخلدونية للصف الأول الابتدائي والتي أجاد تدرسيها إجادة تامة المربي المرحوم بدري قمر ، ومثلهم برع من أهل المدينة من اليهود حيث كانوا تجارا ومعلمين وبعضهم كانوا من أوائل الذين أسسوا الفرق الرياضية ، ومن صناع الوعي السياسي الأول عندما شاركوا أبناء الطوائف الأخرى في الانتماء إلى التنظيمات الاجتماعية والسياسية الأولى في

المدينة ، أما بقية المنجز الحضاري على سعته وامتداده فقد تكفل فيه أبناء الغالبية العظمى من أبناء المدينة من المسلمين حيث الجيل التربوي الأول والصناع والموظفون الحكوميون وجندرمة المدينة ومبدعوها من الشعراء والكتاب والفنانين كما تفتخر هذه المدينة بأنها منحت ريادة الغناء العراقي الحديث جمع مؤسس للأطوار الريفية ..(داخل حسن وحضيري أبو عزيز وجبار ونيسة)الأصيلة في حناجر مثلها الذهبي

فبين الطور الشطراوي الذي ولد ببحته الجميلة وتألق في حنجرة داخل حسن وبين الطور الصبي الذي برع فيه جبار ونيسة يقف تاريخ المدينة على قدمين متعبتين من أسى أزمنة كان سحرها وجمالها ورقتها وبالاً عليها ، فقد كانت هذه المدينة منذ بواكير البدء الحضاري لها وحتى اللحظة مانحة معطاء لما يحتاجه الوطن من جند ومناضلين ومبدعين ، وفي جمع الهواجس الثلاثة نحصل على حزمة من الدمع الذي ينبع من ذاكرة اللوح السومري ويصب في شهادة الوفاة التي تتداولها أمهاتنا في المحاكم ودوائر التقاعد وهن يتابعن مع انحناءة الظهر ولهيب الصيف .معاملة أبنائهن من ضحايا الحروب الأسطورية والتي لا ولم تنته

يكشف السجل الأساسي لأول دفعة مجندة من أبناء المدينة أرقاما تفوق أي أرقام لمدينة عراقية أخرى أثناء حملة التطوع التي قامت فيها الدولة العراقية عند تأسيس فوج المشاة موسى الكاظم في عشرينات القرن الماضي ، وفي مطالعة للأسماء تجد أبناء الريف الملاصق للمدينة يمثل الأغلبية الساحقة ، وهؤلاء وأبناؤهم تحولوا بمرور أزمنة الخدمة إلى عرفاء وضباط صف أدنى لتكتسب المدينة اللقب الشعبي المتداول بين ألوية وفرق الجيش العراقي .(المليون عريف)بمدينة

أظن أن هؤلاء المليون على بساطتهم وبراءتهم وحبهم الجنوني في احتراف أنظمة الجيش وصرامتها مثلوا وجهاً وطنياً خالصاً يقع في خانة المشابهة مع الوجه الوطني القديم لجنود روما عندما تتشابه ساحات العرض وجبهات القتال مع تلك الرؤية التي كان يضعها قادة فيالق جيوش قيصر ليصير موت الروماني هو تألق لمثالية الانتماء إلى .(روما)هيبة وجود مدينة هي

أظن أن موت العريف في ظروف جديدة لحرب عولمية تتشابه تماما مع ذلك الموت الإسبارطي أو ذلك الذي كان لكي تبقى النخلة مزهوة على ضفافها :جنود سومر يدفعونه ثمنا لسعادة السلالة أو الأمير أو كما يقول اللوح القديم ألفراتي وقريبة من ثمالة الإلهة وخلودها علي أن ادفع جسدي ثمناً لذلك أي كانت روح سومر طيبة أو شرهة .(لامتلاك أمكنة أخرى

وهكذا ترينا قوائم المتطوعين الأوائل في دائرة تجنيد الناصرية وجوها من رغبة قديمة لهاجس السيف والبندقية ليثبت فيها الإنسان وجوده من خلال هاجسين لاغير ، حماية التراب الوطني وقتل جوع المنزل وبطون الصغار الذي تركهم العريف في القرية أو زقاق المدينة حفاة ويرتجفون من البرد في انتظار حقائبه المحملة بقماش الشمال السميك وأكياس الجوز والحناء وغيرها من الهدايا التي كانت تصنع في القلوب فرحاً وبهجة واحتراماً لذلك الذي .رغب ليكون متطوعاً في جيش العراق والملك والأمة العربية

ولدت الناصرية مع حلم تركي ، وانتهت اليوم مع حلم متعدد الجنسيات ، وبين الحلمين تحاول المدينة أن تغرد خارج السرب وتصنع خصوصيتها الجنوبية التي تريد فيها النأي عن تواريخ مثل تلك ، فهي تحاول حتى في أرشفة .وجودها أن تذكر فقط اسم مؤسسها مدحت باشا ولا تشير إلى غير ذلك

فما يربطها بالوالي والصدر الأعظم لاحقاً سوى الفرمان السلطاني ، وما تلاه كانت المدينة خاضعة لسلطة عشائر المنتفك وبقيت تحمل اسم لواء المنتفك الذي لحقت فيه أمصاره القديمة والمستحدثة كقضاء سوق الشيوخ .والشطرة وقلعة سكرو الجبايش والرفاعي وغيرها من النواحي والقصبات

أسس الباشا المدينة ثم نسيها إلى هموم أخرى حملته من منصب إلى عزل والى المؤامرات والنفي بعد أن حضي بشرف أن يكون صدرا أعظمَ للحاضرة السلطانية في الأستانة لينتهي فيه الأمر منفياً في الحجاز وليكتب لزوجته الشركسية حنينه إلى أمكنة أحبها وعاش في رؤى تحديث أشواقها كما في بغداد عندما أسس خط التراموای وجلب الكهرباء واستحدث ولأول مرة في العراق نظام التجنيد الإجباري ، لكنه وكما اطلعت على أوراقه وبعض المتناثر من تلك الذكريات واليوميات لم يأت على ذكر المدينة التي صنعت بفرمان منه ، وربما نسي تلك البيوت المشيدة بالطين والقصب والآجر لتنمو بعد حنين وتصير رقما صعبا في ذاكرة الجيوش الانكليزية الزاحفة بأرتالها الهندية والايرلندية والاسترالية والانكليزية من البصرة صعوداً إلى بغداد وليتوقف طويلا زحفها عند البطيحة في معركة باهيزة وليكتب ضباط الحملة الكثير عن هذه المدينة التي كانت بالنسبة لهم خط المواصلات الرابط بين الكوت والبصرة وبغداد ، وربما اثر هذا التوقف الطويل في سير العمليات في هزيمة الجنرال الانكليزي تاوزند في معركة الكوت أمام جيوش الترك بقيادة الفريق خليل باشا وليخضع هو وجيوشه إلى حصار طويل انتهى باستسلامه وأخذه .أسيراً إلى بغداد ومن ثم إلى الأستانة

بين العصملي والسير برسي كوكس المفوض السامي البريطاني تأخذ متصرفية لواء المنتفك حظها كما باقي المدن

.وتفتح الناصرية أذرع التحول للحكومة الوطنية الجديدة بالرغم من الانتداب والوصاية والاستعمار المبطن
تبنى فيها المدارس الجيدة بمعلميها من المسلمين واليهود والصابئة ، تبنى فيها المستشفيات ، وتشيد الحدائق في قبل أن يغير أسمه إلى شارع الحبوبي تيمنا بالمجاهد النجفي العلامة محمد (عكد الهوى)وسط شارع الأسطوري سعيد الحبوبي الذي توفي في بيت العضاض في شارع الحبوبي أثناء عودته من حملة الجهاد في معركة الشعبية الوطنية ، ولينتصب اليوم تمثاله البرونزي في ساحة في منتصف مسافة الشارع تماما تكاد تكون 1920في ثورة أهم نقطة حيوية في المدينة ، ليقف السيد الجليل متكئاً على عصاه وهو يقص للأزمنة الغابرة والقادمة وللأجيال .قصة مدينة آوت فيه الجرح ومدته بعدة الخيل وعدد الرجال والقصائد
وربما كان ليوناردو وولي مكتشف مقبرة أور الملكية قد شاهد المراسيم الفخمة لتشييع الشهيد الحبوبي إلى مثواه الأخير في النجف ، فتنقيب وولي تكاد أن تكون معاصرة للثورة الفالة والمكوار وليكتب وولي عن مشاهداته الأولية عكد)وانطباعاته عن المدينة في الاماسي كررها لأكثر من مرة وهو يتجول في شارعها الطويل والمريح والمسمى إن المدينة التي امتدت على طول قامتها الطينية والمسورة بالطوب الأحمر الكبير وأبواب الخشب الهائلة : (الهوى ، لاتنتمي إلى ألف ليلة وليلة وذلك الشرق الذي نتخيله في حكايات شهرزاد وكهرمانه وعلي بابا ، بل هي مدينة تتنفس الأشياء الجديدة بصورة من يريد أن يركب السحب ليمسك بالحضارة ، ولهذا كانت سدارات الأفندية في عكد الهوى تساوي بالتمام والكمال العقال العربي ، وكانت البناطيل الإفرنجية التي يرتديها شبان المدينة تذكرني بأناقة الشاب الارستقراطي اللندني ، وغير ذلك فالمدينة عندما تشرب من الفرات بتلك الشراهة العجيبة فهي تسقي بفرح .(ودهشة أمكنة الأثر القديم التي تحيط فيها من كل جانب ، أور واريدو ولارسا ولكش وتل العبيد
تختلف رؤية وولي للمدينة عن رؤية مسس بيل السيدة الانكليزية التي لعبت في التاريخ العراقي الحديث دورا يشابه دور لورنس في تاريخ الجزيرة العربية ، وكانت مشرفة على عملية صنع الساسة العراقيين في زمن الانتداب وبعده وكذلك كان لها دور كبير في الإشراف على المكتشف من الآثار العراقية في كل مواقع التنقيب وخاصة تلك .التي اكتشفت في أطلال نينوى ومقبرة أور ومدينة أوروك السومرية وغيرها من الأماكن الأثرية
فالمس جيرترود بيل ترى مدن الجنوب ومنها الناصرية أنها مدنا مغبرة بفعل صيفها الطويل وفقرها وجهلها بالرغم من أن هذه المدن تجلس على أعظم كنوز الأرض واعرق تواريخ البشرية ، إن نظرات أبناء المدن المنحدرين من .(أريافها القريبة تنبئ الفاهم أنهم يبحثون عن مجهول الدائم والذي لم يجدوه
بين رؤية وولي وبيل تختلف عاطفة المستعمر ويتغير استقراؤه ، فهذه المدن المغبرة ومنها الناصرية ، تعرف مجهولها جيدا وظلت وعلى الدوام تحاول أن تميط عنه اللثام وتبعد عن أجفانه الغبار لكنها لم تستطع وحتى اللحظة بسبب تراكم المفارقات التاريخية والحوادث الجسيمة والطيبة المفرطة بالتفاؤل التي تجعل ابن الناصرية يلوذ .بحنجرة الابوذية ليتخلص من رغبة الانتحار مثلاً عندما تفرض عليه جبهة عبدان موتاً غير مستحق
في عدة مجلدات ضخمة تقبع خواطر حلم المدينة مؤرخة بحبر القلم الشيفر بأمل المؤرخ الراحل المحامي شاكر .(مجلة البطحاء)الغرباوي ، رئيس تحرير ومؤسس أول مجلة محكمة في المدينة
فقد اطلعت شخصيا على تلك المجلدات في زيارات متعددة للمؤرخ في بيته ونحن نطمئن على صحته من مرضه العضال ، وكان كل حلمه أن يطبع تأريخ مدينة الناصرية في حياته ، وكان يعتبر المشروع هذا جنته المستحقة التي لم ينلها فحتى اغماضته الأخيرة في السنين الأولى للقرن الجديد لم ترَ هذه المجلدات دفء التنضيد و النور بالرغم من كل المناشدات لمثقفي هذه المدينة في الزمن الذي تلا الاحتلال وبعده ، وكان على جامعة ذي قار أن تأخذ زمام المبادرة ولكنها لم تفعل ذلك حتى الساعة على حد علمي والتي للمؤرخ الغرباوي الفضل الكبير في تأسيسها حيث لم تمل حنجرته ومرافعاته واسترحامه من الحكومة في الطلب لتأسيس هذه الجامعة ولم يجلس محافظاً على كرسي الإدارة في المدينة إلا وكانت على مكتبه في أول أيام ولايته مضبطة أو عريضة طلب تأسيس جامعة ذي قار كما كما سمعت إن جمعية أبناء مدينة الناصرية من .تمنى تسميتها وسميت كذلك بعد أن أسست كلية التربية كنواة لها ساكني مدينة بغداد قد أعلنت رغبتها بطبع تلك الأجزاء وبمتابعة وإشراف من المحامي غالب الحاج فليح والأستاذ .ستار ملا خضر ، ويبدو إن الخطوة تعثرت لأسباب نجهلها
يتداخل وجه المرحوم شاكر الغرباوي مع وجوه نخب مثقفة من أبناء المدينة من مجايليه وقبلهم ، تقرا في ظلال نظراتهم رؤية المدينة لفلسفة وجودها عبر مفازات محفزة لإثبات خصوصية المكان ، فهي من أمكنة الانعطافات التاريخية الحديثة بالنسبة لهذه البلاد ،وكأنها تأخذ هذا النفس من ذاكرة أور السومرية كانت قبلها صانعة لتلك الانعطافات منذ ولادة النبي إبراهيم الخليل في واحد من بيوتها وحتى إحراقها على يد العيلاميين في زمن الملك آبي .ـ سين آخر ملوك سلالة أور الثالثة
مؤسس الحزب الشيوعي العراقي وسكرتيره الأول ، وللوزارات العراقية أعطت (فهد)ففي الناصرية عاش المدينة اثنان من رؤساء الوزارات هما المرحوم صالح جبر في العهد الفيصلي الثاني ، والمرحوم ناجي طالب في

الزمن العارفي ، كما كان المرحوم فؤاد الركابي من مؤسسي حزب البعث العربي الاشتراكي وأمينه العام أيام جبهة وشغل إحدى الحقائب الوزارية ، مع عدد من أبنائه الذين استيزروا في حقب الحكومات اللاحقة ، عدا 1957.
كما تفتخر المدينة بأن الكثير من .المناصب السياسية المهمة في الكثير من الأحزاب عبر تاريخ العراق الحديث
عقولها الفاخرة من أساتذة وأكاديميين جامعيين يجلسون على الكراسي التدريسية في الكثير من جامعات العالم،
حيث يكتب لواحد من أبناء المدينة والذين يرجعون إلى أصولها أن يسمى باسمه واحد من الكويكبات الفلكية من قبل
جمعية الفلك البريطانية وهو الدكتور عبد العظيم السبتي من الطائفة المندائية ، وهو اليوم أستاذ ممارس في
.ومثله الكثير ممن تحتفي بهم جامعات الغرب .اختصاصه في أرقى الجامعات البريطانية
وفي الجانب الفني للمدينة ريادة في الغناء العراقي الحديث ، وكان أصوات أبنائها من أول الأصوات التي صدحت
في الإذاعة العراقية ، ووقف المطرب المرحوم داخل حسن جنباً إلى جنب مع مطرب المقام العراقي محمد القبنجي
وفي الشعر أيضاً كانت لها ريادة في إبداع أبنائها أمثال قيس لفته مراد .ليبثا على الهواء أول الحفلات الغنائية
.وينعكس هذا على بقية الفنون والإبداعات الأخرى .وعبد القادر الناصري ورشيد مجيد وغيرهم
هكذا تعيش المدينة ويتغير هاجس وجودها من حال إلى حال ، متغير يخضع لظرفية التواريخ التي تكاد أن تكون
تواريخ صاخبة لأزمنة لم يهدا فيها فصل واحد من فصول الراحة التي ظل الناصري يتمناها بعيداً عن الحروب
والقسر السياسي والجهل الذي يولد من تراكم ذلك القهر ومسبباته ، وبالرغم من هذا يملك الناصري ذاتاً نقية
تمتلك في عراقة وعيها إلى حضارة النشء الأول لبيوت وعوائل المدينة فيما يتراكم عليها سعال غرباء تزحف بهم
ظروف ومستجدات لواقع هو في المحصلة نتاج ما حصل للبلاد جراء المسببات التي خلقت الوضع الحالي وقبله ،
غرباء المدن البعيدة والريف القصي والبلاد المجاورة ، وهم اليوم يمتزجون مع نسيج المدينة ويخلقون ذائقة
أخرى قد يتشوه فيها بعض الرؤية والمشهد ، ولكن المدينة كحالة لخصوصية وجودها المميز تحاول أن تنأى عن
.مزاج الغرباء وسلوكهم لتبقى مدينة رائقة لصفاء الوعي واللحظة المدهشة
لحظة الشعر واللوحة التشكيلية والنوتة الموسيقية ورسالة الحب والقصة التي تطرق بأصابع الذكريات بيوت
.الزمن وتوقظ من ماتوا وهاجروا من الصحاب والربع والخلاّن
.للمدينة جانب مدهش وشيق في حداثة وجودها الذي لم يتعدَّ بعد القرنين من الزمن
هذا الجانب كشفه مرة الشاعر قيس لفته مراد في إهدائه لكتابه الفانوس ، عندما خصنا بهذا الإهداء بحبر يرتجف
فيه أسى العزلة والمرض والثمالة ، والإهداء يمشي في طياته حلم المدينة وحقائق عاشتها عبر أزل قديم حتى قبل
.أن يومئ الباشا بنظراته إليها ويضعها على الخارطة الجغرافية
من أجل هذه المدينة التي ينظر من تحت :كتب الشاعر في إهدائه إلى على الصفحة الأولى من كتاب الفانوس
أجفانها الفرات ويشبع فؤاد العاشق قبلات ووردا ، أضع تاريخ شوقي السومري بتاريخ كل مبدعي المدينة وفقرائها
، ومعهم أتمنى أن أهنأ بإغفاءة أطول من قبلة الشمس للنخلة ، ولكني لا اقدر أن اجبرها لتكون لي مادامت هي
..((للجميع ، وعرفانا بمحبتي الأزلية لها أوقد هذا الفانوس في ليلها الطويل
ومثل الراحل قيس لفتة مراد يحاول أبناء المدينة من أقاح وجودها أن يوقدوا الشموع في ليلها الطويل الذي ينز فيه
...لهيب نهار تنقطع فيه الكهرباء لساعات
هذه الشموع بالرغم أنها تزيد اللهب والحرارة إلا أنها تبقى بالنسبة لهم مثل بارقة أمل بان تزال غمة هذا الوضع
المتعب لمدينة كان غبارها فصل الصيف فقط ، والآن غبارها الفصول كلها بسبب حاجتها للأمكنة الهادئة والحدائق
بعد أن أتعبتها فصول عجيبة ورهيبة من الحروب وأهمها حرب برزان والتي أشتد .والشوارع والأرصفة المعبدة
وفي تلك الحربين .أوارها على أبناء المدينة في أوائل السبعينات ، وحرب الثماني سنوات بين العراق وإيران
أعطت المدينة من الشهداء والمفقودين والأسرى ما لم تعط أي مدينة عراقية أخرى ، وقد شكلت تلك الليالي
المخيفة التي كانت تجلب فيها نعوش شهداء حروب الشمال المصنوعة من خشب البلوط طقسا يكاد أن يكون يومياً
حيث وقت زمن وصول نعوش هؤلاء المساكين قبل منتصف الليل بساعة على أكثر مواقيت وصول الحافلات مع
مأموريها فتستيقظ المدينة الغافية مع شعاع نجوم السماء الصافية على نواح الأمهات المفجوعات بتلك الزيارة
الليلية وهن في أغلب الأحيان يتوقعن بفطرة الأمومة ما سيحدث بسبب ضراوة القتال ودقة تصويب القناصة الكرد
ببندقية البرنو الجيكية الصنع والمأخوذ اسمها من اسم المدينة المصنعة فيها ، فكان اغلب شهداء المدينة الذين
سرقتهم حروب الشمال يقتلون برصاص هذه البندقية التي التصقت بذاكرة النساء بالرغم من عدم شيوعها كسلاح
جبنالك)في الجنوب ، لتدخل في زغاريد الأعراس في مفارقة غريبة عندما تقارن بأنوثة العروس وعفتها بقولهن
.(برنو ما ملعوب بسركيه
تلك الليالي الحزينة من تاريخ المدينة لم توثق في نص إبداعي طويل ، ولم تنتبه إليه أوراق الذكريات جيداً ، سوى
بعض القصائد الشعبية التي دونها شعراء المدينة على شكل مرثيات واستذكار لأولئك الذين كانوا يأتون إلى مدينتهم

في عودتهم الأخيرة إليها سوى ببدلة جبلية ملطخة بدم الإصابة والدمعة التي تئن من مرارة أن الأمهات سيوقظهن والشمال ..أنا قلت يا علي)صوت طرق الباب وهن نائمات على السطوح ثم يبدأ فصل النواح بجملة الجزع القائلة طركاعه الفت (أو تلك التي كانت نساء مدينة العمارة يهزجن مع وصول تلك النعوش البيضاء (كال جيبيه ألي ..(برزان بيس بأهل العمارة

حرب)انتهت حرب الشمال وتنفس شباب المدينة الصعداء ليأتيهن هاجس لموت جديد هو أشد وطأة من موت ، عندما بدأت حرب ضروس بين العراق وإيران على خلفية المشاكل العقائدية والحدودية بين البلدين ، (برزان لترى الناصرية ما لم ترَ غيرها من مدن العراق عندما راح ضحية هذه الحرب طوابير من أبنائها الشهداء ، وهذه المرة كانت نعوش الشهداء تصل في وضح النهار ويميزها ذلك العلم الذي كان النعش يلف به والسيارة التاكسي الذي تحمله ، ليزداد النواح والحماس وطاعة الأمر لواجب يعتقد الكثير أن طاعته هي وليدة البناء النفسي للمرحلة وقصة هذه .والخطاب السياسي ودور الإعلام وأمور تتعلق بالعلاقة التاريخية المرتبكة بين العراق وبلاد فارس المرحلة من تاريخ المدينة طويلة ودونت بأكثر من رؤية في كل المجالات ولكنها اليوم تخضع للكثير من تأويل النقد بين الإدانة والرضا ، وفي النهاية لا يمكن إلغاء تلك الهواجس من تاريخ المدينة بأي شكل من أشكال انتماء هذه الهواجس ، ومن يحاول أن يلغي القيمة الفنية والتوثيقية فهو يحاول إلغاء تاريخ ومرحلة معاشة بكل فصول .محنتها وجمالها وآلامها

الكتابة عن الناصرية مهنة لا تمل بالنسبة لأبنائها من الذين ابتلوا بعاطفة الكتابة وحرفيتها ، وحتى البسطاء يحاولون أن يعبروا عن ابسط هاجس يثبتون فيه صدق الانتماء للمكان ، ومجرد الجلوس في المقهى أو النزهة على ضفاف الفرات أو تذكر أريج الورد في متنزه المدينة أو حضور عرض مسرحي في بهو بلديتها يعيد إليك قناعة عن المدينة موجودة ، وباقية وليس لرياح العبث العولمي ونقص الخدمات أن يغير فيها شيئا ، فهي مدينة تحسب في أرقام القلب كمعادلة نتيجتها خلود لعاطفة الطيبين الذي سحبهم ارق صفاء النجم ليكتبوا أو ليعيدوا مواويل الشوق لبساتينها وهم يلتسعون بثلج ربايا الشمال أويكتوون بلهيب حجاب الحرب أو ذلك المهجر الذي .هطلت فيه سويعات التذكر لينام في خاصرة المحب شجن الحلم لواحدة من أعذب بقع الدنيا

مدينة تاريخها ينطق بأغاني العصافير والسنونو وديك السطوح الطينية ، تلك التي تتعشى بصوت أم كلثوم وتفطر لو رايد عشرتي)على صوت فيروز وتقضي قيلولتها على نغم حنجرة داخل حسن وهو يهتف كموسيقار سومري .(أدوْر علَهَ الصدك يا ناس راح وبعد وين الكاه ..حَجي الجذب لاتطريه ..وياك

هذا نواح الماء والشجر ، وهو وحده من يصنع المدن الأصيلة تلك التي تشدنا إلى خاصرتها أكثر كلما بعدنا عنها مدن الملح والغبار ودموع رسائل الحب وموسيقى دفعات التجنيد الإجباري وخبز التمن وزمن آلميني .مسافة أطول .الخضارة والكسبة والندافين ..جوب وسارتر والمواكب الحسينية

مدينة الناصرية الشاهد لجزء مهم من تأريخ العراق الحديث تبقى تسجل في رُقم الطين وجدران المعابد وبيوت محلاتها القديمة خواطر حلمها الأبدي بأن تظل وتدوم إلى الأبد فوانيس للطريق الواصل بين النجوم واجفان العشاق ومتى تأتي لحظة الراحة والنفس العميق تبقى المدينة أمانة في عنق المتصرف والقائمقام ومدير الصحة والمجلس . .البلدي ، والوطني الغيور الذي تبحر الرياح في جيوبه وليس الحساب المصرفي

الفصل السادس

(شعب جلجامش ، شعب سمر قند ، شعب السريالية)..المعدان

ولدي ، الحرب ليس لنا معها سوى مايهجعنا ، وما يفزع جواميسنا ويحرق بيوت القصب ، ولذلك أذهب أليها))
ً!..بعصاك الغليضة ، وأجبرها لتذهب عنا بعيدا
تقول الأم بارتباك خجول ..الغريب أن العصا الغليظة هي من استدارت لتضرب قفا المعيدي ولتجبره ليذهب بعيدا
(.!لقد انتصرت الحرب علينا حينا من الزمن ولكن ليس الى الأبد :وفتنة تشبه ضوء شامة على الخد

من هواجس أم من سكان الأهوار

وجوههم تشع بجمال سريالي غريب ، تصبغهُ دهشة غامضة عن تفكير عميق بشيء لم تدونه أبجدية القرن)
العشرين ، إن نظراتهم المسمارية الغامضة تنبئ عن أبد سحيق يعود بهم الى ألواح الحضارة الأولى ، لهذا فأنا
أجزم إن معدان اليوم ،ليسوا سوى بقايا سومريي الأمس ، بقوا حذرين ليعيشوا، فتركوا مجد سيوفهم ،ليعيشوا مع
مجد جواميسهم العائمة في خيال الماء والطبيعة وبراءة التفكير بان أي شيء لن يصيبهم ويفتك فيهم مادام السيد
.سروط والعلوية فواده أم هاشم والسيد يوشع قد قرؤوا الحمد وتبارك قرب وسائد مواليدهم الجدد
المعدان اصلاء ليس بإصرارهم على عشق المكان فقط ،بل بما يمتلكون من أمل خالد ،انهم سيعودون إليه حتى لو
(.دمرته مدافع جيوش الأرض كلها
مقدمة من اجل المكان الى الأمم المتحدة

والمعيدي غير المُعيدي وهو طائر جميل الصوت قبيح الصورة ومن هنا جاء في أمثال (معَيدي)المعدان جمع))
هذا يعني أن هذا المثل المتداول بين الناس والهدف منه ..(أن تسمع بالمعُيدي خيرٌ من أن تراه)العرب قولهم

الانتقاص من قيمة المعيدي هو لا يعنى فيه المعيدي كأنسان وأصل ونسب بل يقصد فيها هذا الطائر المسمى على هدي هذه الحكاية وهذا المعنى ، حاولت أن أعيد تكوين صيرورة هؤلاء الناس من خلال إحساس ..((المعيدي خاص اعتمد ليس فقط على ذاكرة التاريخ ،بل إن المعايشة والتجربة والمراقبة والبحث صنعت لدي كل تلك التصورات التي خلفتها برؤيا هي في تقديري عمل أدبي قبل أن تكون دراسة لتاريخ شعب ظل على مدى عقود يمسك أحلامه من خلال إحساسه بان الله خلقه لهذا المكان فقط.

فقد قدر لي أن أعيش معهم ردحا من الزمن في فترة عصيبة من حياتهم ، وما أكثر قسوة التاريخ على شعب يدرك فقط أنه شعب آت من حضارته البعيدة التي منحت العالم رسم الحرف ومعنى الكلمة ، وهم الشعب الوحيد في الكون من جعل الجواميس خيول معاركه وليس جياد الحرب التي ركبها قتيبة بن مسلم الباهلي وذهب بها الى سمر وكنت دائما أضع قضاء الجبايش وهو واحد من أهم مدن الأهوار في مشابهة جمالية وروحية مع سمرقند .قند المدينة الأوزبكية التي سحرت القائد المغولي جينكيزخان ، وظنها مفتاح الولوج الى العالم الجديد وامتلاكه ، عندما وتأمل الى وصف المؤرخ المغولي وحاكم بغداد بعد .إذا كنتم تحلمون ببغداد ، فعليكم أولاً بسمرقند :همس لقادته :هولاكو عطا الملك الجويني في وصف المدينة يغنينا عن أي وصف آخر لها قوله

أنزه جنان الله أربع ، وسمرقند :سمرقند أعظم بقاع مملكة السلطان مساحة وأطيبها ربوعاً ، وقديماً قالوا)) أطيبها)).

:أيتاليو كالفينو صاحب اشهر كتاب عن المدن المتخيلة يقول .صناعة المدن والأمكنة المتشابهة أمر ليس بسهل .عن صناعة مدينة مفترضة لواحدة كموجة في الواقع لابد أن ينال الكثير من الاسطرة

وعليه فان جلب سمرقند الى الجبايش يعني مفارقة غريبة ،فمن جاء بالأزوبك الى مدينة بني أسد وقرى المعدان الذين يطوفون بأخيلة الماء والنجوم كما تطوف الغيوم في كبد السماء ،فيما سمرقند لا تطوف فيها سوى زرقة الكاشان الذي يزين مآذنها وذاكرة تاريخ الأوزبك وهم يحلمون بالشرق الذي يرقد فيه أمام مذهبهم أبو حنيفة النعمان وبيت الله في نجد.

لهذا أتخيل أن سمرقند ثانية تطوف في أرجاء مكان تصبغهُ من كل جهاته اضوية اللازورد الأخضر وكتابات تتحدث الذي غفت على كتفه الكثير .عن سحر غامض لكنوز وامكنة كانت في يوم ما واحدة من اجمل أحلام الاسكندر الكبير من الأساطير ومنها ما كان يظنها هو أن جنوب بابل التي وصل إليها بخيول الرومان والإغريق والمقدونيين لعصية عليه بسبب أقوام البطائح والمياه المحصورة بين ضفتي دجلة والفرات ،وحتما كان يقصد المعدان.

إسكندر)للأسكندر في قصيدته الشعرية النثرية والموسومة (نظامي الكنجوي)ويبدو أن تصوير الشاعر الفارسي الطويلة التي تحدث فيها عن مراحل حياة الإسكندر في صورتيه المفترضين ،تلك التي دونها التاريخ عنه (نامه بأسم الإسكندر المقدوني ،وتلك التي جاء ذكرها في القرآن الكريم بأسم الإسكندر ذي القرنين بعد أن سأل عنه وفي نهاية فصولها الحكاية التالية عن الإسكندر وفيها ما اعتقده .الرسول من قبل قريش وبإيعاز من أحبار اليهود :ربطا بالمكان واهله وخصوصيته قول الشاعر الفارسي الكنجوي

ثم علم الإسكندر إنه وصل الى الأرض الظلام حيث يوجد ماء الحياة ، فأقترب من المنطقة ،وقابل الخضر ، فسار)) معه في الظلام وأخذا يفتشان عن ماء الحياة ، فعثر الخضر على عين ماء وشرب منها ، أما الإسكندر فقد تاه عنها .((وظل الطريق ، وظل يبحث عنها أربعين يوما فلم يعثر عليها ،فقفل راجعا الى بلاد اليونان

في تناص بنيوي تظهر هذه الحكاية ملائمة مع خصوصية المكان الذي عاش فيه عرب الأهوار ، حيث المكان ذاته تفاحة الحياة ،ماء الحياة ،عشب الحياة ،)الذي انطلق منه جلجامش للبحث عن خلود مفترض وصف بعدة أشكال ، وربما يأتي شيئ من الربط في حكاية الشاعر الفارسي إن ثمة مكانا مقدسا يقع في الطريق الواصل (شجرة الحياة وناحية الفهود من أشهر مدن .كم جنوب بغداد 360 /بين مدينة الإصلاح ومدينة الفهود ضمن محافظة ذي قار الخضر)الأهوار التي يسكنها المعدان منذ البعيد تحوي مقاما يقدسه الناس ويزورونه في مواسم معينة يسمى مقام .(حي الدارين

وربما هذا التناص في رؤاه البنيوية يقودنا الى تفكير آخر في علاقة الإسكندر في المكان الذي سكنه أهل سومر وهم سكان الأهوار القدماء وصانعو عصرها المجيد في سلالاتها الثلاث ، يقودنا الى شخصية الإسكندر ذي القرنين الذي ذكر في سورة الكهف وفي هذه الآية يصنع التناص وتقترب شيئا من الصورة عن المكان وخصوصيته ، فالإسكندر ربما وصل المكان وله مع المعدان جولات بالرغم من إن التاريخ لا يتحدث في هذا الأمر سوى ما تركته والآية الكريمة التي .لنا رؤية أحد قادته الذين أرسلهم لاكتشاف المكان والسيطرة عليه وهذا القائد هو نيرخس وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا))تحدث عندنا تلك المقاربة أو الظن هي)حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم تجعل لهم من دونها سترا (89)ثم أتبع سببا (88)يسرا 90).))

وربما يقترب القصد إن أولئك الذين تجعل لهم الشمس من دونهم سدا ،هم سكنة الماء الوفير الذين ينظرون في فكانت .صباحهم الى أفق مفتوح لاينتهي ، حيث لا يسترهم حد فاصل أو جبل أو أي تضاريس طبيعية سوى الماء .الشمس بعض من سترهم الذي يحتمون فيه

أعود الى هذه الفترة العصيبة التي حاولت فيها الدولة أن تسيء الى مرجعية وعرق ونسب وانتماء هؤلاء الناس وكأنها كتبت معتمدة على . 1991خلال مقالات يومية نشرتها جريدة الثورة العراقية بعد نهاية حرب الخليج الثانية نظرة عامة خاطئة وبعض المؤشرات التاريخية القليلة التي كتبت بمزاج مؤرخ غير منصف وشعوبي أيضاً ، وعدها كاتب المقال الذي لم يذيل أسمه تحت تلك المقالات ، حيث افترض البعض عن إن الرئيس السابق صدام حسين هو من كتبها ،فيما قال آخرون إن عبد الجبار محسن مدير التوجيه السياسي والناطق الرسمي بأسم الحكومة ورئيس تحرير صحيفة القادسية الناطقة بأسم وزارة الدفاع هو من كتبها بإيعاز من الرئيس ، وأي كان كاتب تلك الأعمدة التي لم تلق من بال في الذاكرة الشعبية للمواطن العراقي بسبب سعة معرفيته وإدراكه لتسييس الأمر وانتقاما للحركة المسلحة التي قامت بها مناطق الأهوار والجنوب ضد الدولة ومؤسساتها الرسمية والحزبية ، وهي من نتاج التراكم الاجتماعي والاقتصادي والأيدلوجي القائم بين الدولة كنظام وبين تلك الشرائح الريفية التي تكونت ثقافتها على أساس المتوارث من عصور القهر الديني والتمايز وتأثير الأحزاب المعارضة والمقاومة للدولة والتي اتخذت من الأراضي الإيرانية المتاخمة والمتداخلة مع مناطق الأهوار مقرا لأنشطتها وتحركاتها واهمها التشكيل العسكري للمجلس الإسلامي الأعلى والمتمثل في فيلق بدر الذي تأسس في قم بدايات الثمانينات والذي شارك مشاركة فعالة عبر عناصره التي استغلت انفلات الأمن وغياب الأفواج الحارسة للحدود وتفكك البنية العسكرية للدولة وهيكلة معظم فرق الجيش نتيجة للانسحاب غير المنظم والهزيمة التي تلقاها بعد دخول العراق للكويت وما .(صفحة الغدر والخيانة)، فيما كانت الدولة تطلق عليها مسمى (الانتفاضة الشعبانية المباركة)أطلق عليه كان التشكيك بهؤلاء الناس يقوم على أساس انهم عديمو الوطنية كونهم لم يكونوا أصلا من العراق حيث عدهم الكاتب من بقايا أقوام هندية هاجرت الى العراق مع قطعان جواميسها في فترات متلاحقة ومتباعدة من التاريخ .،وانهم لا يفقهون في السلوك الحضاري أي شيء ،فهم لم يعرفوا حتى ارتداء النعل أو اللباس الداخلي

ويبدو أن سكان الأهوار دفعوا ثمن هذه الصفحات من الفوران الشعبي ، حيث انسحب الآتون من إيران وتركوا أبناء الأهوار الى قدر مجهول من نتائجه الكارثية قيام الدولة بإصدار قرارات تجفيف الأهوار ، بعد أن تحدث حسين كامل حسن صهر الرئيس في واحد من اجتماعات مجلس الوزراء وكان حينها وزيرا للتصنيع العسكري ، أن لا خلاص من غضب ومقاومة أبناء تلك المناطق إلا في تغيير المعالم الطبيعية للمكان وتجفيفه واقامة مشاريع استصلاح للأراضي لتهيئتها للزراعة الشتوية والصيفية في الحنطة والشعير من خلال إقامة مشاريع الأنهر والسدود لحصر سكان الأهوار في مجمعات ريفية معلومة وتحت أنظار الدولة ، فأقيمت مشاريع اروائية وانهر صناعية تتغذى من نهري الفرات ودجلة كنهر الكرماشية وعبادة وأم المعارك في الناصرية ونهر العز في ميسان غير أن المناطق لم تنل من هذه المشاريع شيئا يذكر ولم يحسن الوضع الزراعي لسكانها .وغيرهما من الأنهر بسبب شح المياه وارتفاع نسبة الملوحة وعدم تأقلم تلك المجمعات مع الوضع الجديد الذي اعتبر في بعض الاحيان بمثابة تهجير قسري ، وخاصة عرب المعدان الذين لم يتعودوا في حياتهم على هكذا نوع من التوطين ولم يكونوا ولذلك فضل الكثير منهم أن يبدأ .ميالين الى الزراعة بقدر ميلهم الى تربية قطعان الجاموس والاستفادة من منتجها هجرة منظمة الى المدن ، وامتهان مهن حرفية أو الاشتغال كعمال أجراء في البناء أو الصناعات التي كانت تعتمد على مادة القصب ، وبعضهم فضل تطويع أبنائه في سلك الجيش أو الشرطة تخلصا من العوز والفقر والمتطلبات الكثيرة التي تحتاجها المدن بعدما كان في بيئته لا يحتاج سوى الى سرير من القش وسماء مفتوحة على المياه .الممتدة باخضرار خجول بين الأشنات والغابات الكثيفة للقصب وعصا غليظة يسوس فيها قطيع جواميسه

حجم العصا يجب أن يكون بمستوى :أدركت أخيراً لماذا تكون عصا المعيدي غليظة ؟ من خلال جواب أحدهم لي حجم الحيوان ومزاجه ، وهو يظن أن مزاج الجاموس ليس رائقا في كثير من الأحيان ، فهو يحتاج الى عصا غليظة تسوسه ، بينما لا يحتاج راعي الغنم في المجتمعات الريفية الأخرى سوى الى عصا نحيفة يحولها في بعض الأحيان ويبدو إن الدولة انتبهت الى عصا المعيدي واستفادت من خصوصيتها واستخدمتها .الى ناي عذب ليقود فيها قطيعة ضدهم عندما ، كانت سياسة العصا الغليظة هي ما مورست على سكان تلك المناطق وسعي من خلالها تغيير ملامح الطبيعة وانقراضها من خلال منع المياه من الوصول الى تلك المنخفضات وأقامة السدود عبرجهد هندسي جبار ، وعملية تعبوية شاركت فيها كل قطاعات الدولة من موظفين واناس من شتى المهن عندما كانوا يجبرون في وهي مشابهة الى عملية جز الصوف أي قطافه ، (جز القصب)الذهاب الى الهور للمشاركة ما سمي حينها عملية وهو ما يطلق على الثوب (بدشادشة)وكانت الدولة تكرم المشاركين في عملية جز القصب هذه .أو حلاقته .الرجالي الطويل في الدارج العراقي

يبدو مصطلح حلاقة القصب ، غريبا ،ولكن في مزاج الساسة وتصرفات الولاة لا يبدو الأمر غريبا ، فإن المناجل تحولت الى مقصات لتلك الضفائر القصبية التي ظلت منسدلة على جبين التاريخ وأكتافه آلاف السنين ثم جاء الأمر وتلك معادلة لايمكن .الرئاسي بضرورة تحويل تلك المناطق الى مناطق يابسة لأن أمن الوطن أهم من الأمن الطبيعي أن تضع في قواميس السياسة أصلا ربما لأن الطبيعة هي أم الوطن وأم الإنسان والوطن بلا طبيعة لها خصوصيتها .لن يكون وطنا أبداً

وهو حتماً زمن عصيب أدرك من خلاله .بين العصا الغليظة وحلاقة القصب عاش المعدان زمن المنفى الجديد المعدان أن اندماجهم في المجتمعات الجديدة يبدو مستحيلا ، وان بهجة المدن لا تلتقي مع دمعة الجوع والعوز ، لهذا كانت غربته ترتسم على حياتهم من خلال إصرارهم على إبقاء جزء من خصوصية العيش الذي كان يلف بهجة حياتهم في الأهوار ، عندما حاول بعضهم من تأسيس مجمع سكني صغير لهم يمارسون فيه تربية الجاموس والامتهان من منتجه من خلال بيع القيمر والحليب فتكونت أحياء تحمل مسمياتهم هي أصلا كانت موجودة قبل التجفيف ولكنها توسعت بعد أن هاجر الكثير من أبناء الأهوار إليها ، فاضطرت الدولة أن تنقلهم مع دوابهم الى مناطق ابعد عن الحدود الإدارية لمراكز المدن كما في حي المعدان في مدنية الناصرية ومنطقة الكمالية في بغداد والمهم في نظرتهم الى المكان الجديد أن يكون قريبا من منابع المياه ومجرى النهر ،فقد كان .وغيرها من المدن الماء بالنسبة للمعيدي الملاذ الوحيد لكل أحلامه ،وهو يلتقي مع المندائيين في نظرتهم الطقوسية والمقدسة للماء فالعالم بالنسبة له ظهيرة دافئة يتأمل فيها .فهو حياتهم ،ومن دونه لا يستطيع المعيدي أن يهنئ في لحظة واحدة .قطعانه وهي تقضي قيلولة المتعة في الماء وتحت أشعة الشمس

ربما لم ينبه أحدهم الى التشابه الكبير بين عصا جلجامش المتخيلة من حكايته الأسطورية في رحلته العجيبة وبين .عصا المعيدي

والحق كما أكتشفه الرحالة ورجال الآثار الذين زاروا وعملوا في مناطق الأهوار أنهما من نفس الشجرة ، وربما هي من سلالة تلك الشجرة التي تقف اليوم شامخة من أعوامها الألف المؤلفة قرب ضفاف اللقيا بين دجلة والفرات التي تزار من قبل سكان الأهوار كما تزار مراقد الأنبياء والأولياء ، شجرة السدر (ع)شجرة أبونا آدم :ويقال لها .التي يحرص المعدان دائما أن يكون خشب عصيهم التي يقودون فيها قطعان جواميسهم المشاكسة منها

من خشب شجرة السدر صنع جلجامش عصاه التي تلمس فيها الطرق البعيدة المليئة بالأخطار بحثا عن وجود أبدي .، وبها أوجع رأس الشر ضربا عندما هوى بقوة سومري شهم على رأس خمبابا الوحش حارس غابة الأرز

ولأن الجواميس ليست خمبابا ابتكر أحفاد ملك أوروك هذه العصا ليلوحوا بها فقط أمام قطعانهم ليرهبوها ، فقد لا يجرؤ معيدي على ضرب دابته بتلك العصا لأنه يدرك بان الحنان الذي تحتاجه الجواميس ينبغي أن تراه مرسوما في حشد المواويل والأغنيات التي يطلقها المعدان وهم يعودون بقطعانهم من مراعي الماء والقصب أملين بأواني وفيرة من حليب دسم يطعمون به أطفالهم ويذهبون بالباقي الى المدن القريبة ،حيث يدرك العراقي إن لا لذة وطعم يفوقان قيمر جاموسة المعيدي ،وحيث لاسحر يفوق تلك المشية الجميلة التي تتهادى فيها بنات المعدان وهن .يحملن فوق رؤوسهم ناطحات سحاب من قدور الحليب والقيمر واللبن الخاثر

لكن الفرق شاسع بين عصا الملك السومري وبين عصا المعيدي بالرغم من انهما بحجم متساو ومن شجرة واحدة ، يتخيلها البعض أنها من شجرة السدر حتماً ، وهي ذاتها التي صنع منها آدم ع أول عصا ردع ليعاقب الأخ على قتل أخيه ،فيكون هاجس الانسياق بالعصا هو هاجس متوارث ، حتى وصل أخيراً الى معلم المدرسة ليعاقب فيها .تلميذه والى الشرطي ليعاقب فيها المتظاهر المحتج

هذا الفرق قائم على رؤيا الهدف بين الملك والمعيدي ،وهي رؤية أزلية وتعيش معاصرتها اليوم في مجمل تفكيرنا بقضية شعب الأهوار ، فثنائية الملك والعصا قائمة وبينهما يوجد مستلب يحاول جهد الإمكان أن يتحاشى تلك العصا ،وان لم يستطع استخدمها هو لسلطة أخرى لا تقترب من قفا الملك بل من قفا جاموسته ، غير ذلك فأن عصا المعيدي الغليضة لها فهم ومدلول واضح أنها صنعت لتردع مزاج الجاموس ، فما صنع جلجامش عصاه ليردع مزاج الزمن وفي ذلك إشكالية معقده كلفته أن يخسر لحظته الإنسانية ليعيش فكرة الخلود التي لم ينلها حتى الأنبياء عصا المجهول هو .فكان الفرق قائما بين هاجسين .والقديسين وأباطرة المال ،واعني فكرة أن نبقى أحياء الى الأبد جلجامش ،وعصا المفهوم هو المعيدي ، وربما انتصار عصا المعيدي في النهاية وبقاء النمط الحياتي لوجوده خالدا ليوقفوا خلود البسطاء .،فيما ركنت أحلام جلجامش الى ألواح الأسطورة هي من جعلت الملوك ليصنعوا عصا أخرى والذين عاشوا بفطرتهم السريالية ليخلقوا نمطا جماليا من العيش تغلفه القناعة والنظر الى المحيط الممكن دون الذهاب بعيدا ، وهذا الإيقاف كان بواسطة الردع الطبيعي ،وهو نمط جديد من الحرب ربما أقسى من تأثير المدفع وربما ليس فقط .والبندقية ومقصلة الإعدام عندما تفكر بتغيير الطبيعة وهذا يعني في العرف الفقهي تغيير خلقة الله العطش أيضا ، فالمعيدي يقول عندما .أفواج العسكر والجهد الهندسي وسدود التراب هو من يسهم في هذا التغيير

.يشح الماء عني يعطش جسدي ، ولكن عندما تعطش جاموستي تعطش روحي كلها
عطش الأهوار بالنسبة لأولئك السرياليين هو عطش الروح ، وذلك بعض من هواجس ملك أوروك جلجامش ، فقد كان يلوح بعصاه حتى ظل الشجرة الذي يصادفه يوم شعر بعطشه وانتهى فيه ليغفو تعبا بالرغم من انه وجد نبات الخلود ، لأجل هذا فأن الدولة التي تريد أن تديم عالما كهذا عليها أن تبعد عطش الروح عن المعيدي وسكان الأهوار قبل أن تبعد عنهم عطش الأرض ، وعطش الفم ، لأن من تعطش روحه صعب أن تسقيه بحوضيات الماء وقناني المياه المعدنية ووعود الأعمار ،مادامت دجلة تأن من جفاف مجاريها ،والفرات تزداد ملوحته في أعلى .نسبة له في أزمنته ،فأن الحلول المفترضة والوعود وزيارات المسؤولين لن تجدي نفعاً
أضع روحي المعيدي في ميزان اللحظة التي قرر فيها جلجامش المشي الى قدره الجديد ، وعليَّ أن ألوح بعصاي ، أهش فيها قطعان الجواميس المقدسة التي رسمها نرام ـ سين على مسلته وأظهره فيها جبروت رجال المياه والقصب ، ومع الملكين أبره في اسطرة تلك الشخصية واقرا فيها ما يعتقده المؤرخون والرحالة انهم في خصوصية عيشهم هذا يمثلون حالة نادرة فقد كان ثيسكر مؤلف كتاب المعدان يرى فيهم شعبا بسيطا ومتواضعا .وكريما وذكيا ، وهذه كما يقول ديوارنت في قصة الحضارة بعض خصال الشعوب العريقة
هذه الروح التي لم تأن تحت أي وجع حتى مع الكوارث الطبيعية والحروب والمجاعات ، ولهذا كانوا يرون في ما يحدث أمرا قدرته السماء ولا مناص منه ، ولكنهم من شدة عشقهم للجواميس والقصب يرون في جوعهم أخف أن حزنهم يكمن عندما يرون حزن المكان .وطأة عليهم عندما لاتجد دوابهم قصبا اخضر وماءً وفيرا تغطس فيه الذي يعيشون فيه يقطر دوما على ما يصيبه من عطش وتصحر وغياب الطيور المهاجرة لتقضي مشاتيها بين الغابات الخضر والمياه التي تضيء بخضرة العشب كما تضيء الرقم المكتشفة في مناطق الأهوار والتي تحدثت وحدهم عرب الأهوار .لرجال المعاول والمكتشفين عن عهود وطبقات من أزمنة عاشت عصورها الذهبية ومضت .بقوا ليس لانهم يعشقون المكان بل لأنهم أزله المطلق
هذا الأزل الذي وقفت عنده الحكومات والمنظمات حائرة وسلطت عليه شيئا من أضوائها فقط لأجل أن تحيي فيه ما كان متعودا عليه ، أن تأتيه المياه في مجاريها الفياضة ، ولكن الاستبشار لم يدم كما كان متوقعا ، ومرة أخرى رفع الساسة عصاهم الغليظة ولم يلتفتوا الى أحلام جلجامش ،وإذا كنا نتصور في أحلام الجغرافيا إن خلود ارض العراق مع خلود نهريه ،فكيف سيكون ذلك الخلود إذا جف الماء ،وعاود المعدان هجرة أخرى الى باطن المدن .(أحياء المعدان)يؤسسون أحياء مصطنعة تسميها البلدية وأهل المدن
أنصف الأجانب المعدان قبل أن ينصفهم أهلهم من العراقيين ، فعدا إشارات الدكتور علي الوردي في بعض دراساته الاجتماعية ، تخلف الباحثون والمؤرخون كثيرا عن الغوص في حياة هذا الشعب وروحه ، وربما الأدب العراقي هو من اعتنى كثيرا بهؤلاء الناس من خلال معايشة الكثير من الأدباء من قصاصين وشعراء لسكان الأهوار في فترات النفي السياسي لهم وأغلبهم من المعلمين ، ولكن مؤرخا ورحالة هو ويلفرد ثيسگر أعاد لوجودهم الأصل والهيبة ، وعايش فيهم جميع الصفات الإنسانية ، وجعل العالم يرى الطبيعة الحقيقة لشعب كان ماكس مالون الآثاري الذي رافق ليونارد وولي في تنقيباته الشهيرة في مدينة اور ومقبرتها الملكية ، وهو الزوج الأخير للروائية الإنكليزية الشهيرة آجاثا كريستي كان قد تحدث في محاضرة له في المتحف البريطاني عن المعدان أعادهم الى الأصول السومرية من خلال قرائن عديدة تضمنت التشابه المعماري بين بيوت المعدان وبيوت السومريين كما رأيناها في الأختام والمسلات وجدران المعابد ،كذلك تشابه آلات الصيد والزراعة والنقش وغيرها من العادات ، كما أن الأثريات التي قام فيها وولي أظهرت أمكنة محتملة للطوفان الأول ،حيث أكد أن بطائح الجنوب العراقي حيث الأهوار هي التي عم فيها الطوفان كما أثبتت حفريات وولي ودراسته الجيولوجية لطبقات الأرض ،وما فكه علماء .اللغة المسمارية الذين قدموا مع وولي
غير أن ماكس مالوان لم يتعمق أو يغور في البحث ،لقد تحدث فقط عن إشارات لقوم يعيشون بطبائع خاصة لا يوجد لها مشابه بين شعوب العالم ، لكن ثيسكر ذهب معهم بعيدا وصنع لهم في الذاكرة العالمية كتابا مهما يتحدث عن حياة عاشها بصبر وتأمل مع هؤلاء البسطاء في حياتهم ، أصحاب الذاكرة العميقة والإرادة التي لا تنتصر عليها عناد الجواميس ولا فيضانات المياه ولا رهبة أساطير وغموض التلال الأثرية التي تناثرت جزرا وتلال بين .مساحات المياه الممتدة بعيداً
كان كتاب المعدان لثيسكر وثيقة حية ترصد السلوك الاجتماعي لشريحة من البشر ، لم يقترب من حياتهم قبله في هذا العمق أحد ، ويرى القارئ بين جنبات الكتاب روحا طيبة ومتأملة وعارفة للقيمة الإنسانية والتاريخية لمثل هؤلاء القوم ، ولو كان في مقدورنا أن نضع لهذه الحياة التي عاشها الرحالة مسمى آخر فعلينا أن نقارنه بكولومبس الذي اكتشف أمريكا وهنودها الحمر ، وفتحت بوابات العالم لمعرفة حضارات عظيمة في أمريكا الجنوبية مثل حضارة الازتيك ، وتلك التي وجودها عند سكان نيوزلندا الأصليين التي تمتلك مشابهات كثيرة مع

.حياة سومريي جنوب العراق ، فيما يخص الطبائع والعادات والطقوس الدينية
فهو يبدأ مكتشفا المكان من خلال عين أدبية يسحرها المكان وجماله فتراه من أول انطباع يجد انه مشدودا لعام مبتكر وغريب وعليه أن يمضي معه بعيدا ،بعدما أجاد في وصف الانطباع الأول عن روح المكان ومعماره كما والصادر عن دار الشؤون الثقافية العراقية (حسن ناصر)يصفها في كتابه المعدان والذي ترجمه المترجم العراقي 2005.في بغداد
لأبدأ الكبير المجر من قارباً استأجرت 1951 فبراير شباط من الأول الأسبوع من صباح في العمارة غادرت)) الشيخين من واحداً كان الخليفة مجيد أبوه .الهور حافة عند مجيد بن فالح بيت باتجاه الخمسة أميال رحلة في شهور بضع أُمضي أن آمل كنت . مقاتل رجل ألف وعشرين خمسة تضم التي محمد البو لعشيرة الكبيرين من والآخر الحين بين أنظر . لي كبيراً عوناً سيكون مجيد بن فالح أن دوغالد ستيورات اقتراح فكان ، الأهوار بلونه النهر لكن .النظر مرمى في تلوح الأهوار كانت إن لأرى مستديرين انعطفنا كلما و القارب في مكاني المبنية القصب مساكن من صف . النهر يتفرَّق بعده آخر منعطف . ممتدة منبسطات في يجري كان الطيني الأرض على يرتفع حصن مثل السقف مستوي الطابوق من مبنى هناك كان . الرئيس المجرى يواجه بإتقان ليكسر يرتفع عمود هناك . ملونة ببُسُط المُسقّف . المقبب البناء هو أكثر أدهشني ما لكن . وراءه الممتدة ((النهر فرعي بين بارز بشكل المبنى يقع حيث الأربعة الزوايا من واحدة كل عند السطح خط استواء
كتب ثيسكر أشياءه .1973، وآخرها في عام 1950وعلى مدى رحلات متعددة ومتفاوتة الأزمنة بدأت من عام بعناية عن أولئك الناس الذي يشعر قارئ الكتاب كم من الحب يمتلكه لهم ، وربما هو من فتح آفاق ولوج المكان من قبل الدارسين حين جاء من بعده رحالة بريطانيون وتحدثوا عن ذات الدهشة فألفوا كتبا عن هذا العالم الاستثنائي الذي يعيش فيه المعدان ، ويمارسون حياتهم بفطرة وسريالية ونبل دون أن ينتبهوا أو يحسبوا حسابا طارئا لكل ما يأتي فيه القدر وعلى قناعتهم يرسم الهاجس الأبدي ثبات الفكرة ، أن السادة العلويين والأولياء وأهل البيت ، والعلي القدير سيحميهم من كل مكروه ،لهذا حاولت مرات تفسير تلك النظرة التي رسمت خطوطها المشعة والذكية تحت أجفان معيدي في النزع الأخير ولم أجد تفسيرا حتى عندما ذهبت الى كتب فرويد وكارل يونغ لأجد المبرر .الروحي والنفسي لتلك القناعة التي ملكت الرجل وهو يستقبل موته في هدوء
أتحدث عن هذا في موقف كنت شاهدته عندما نمت ليلة صيفية في بيت من بيوت المعدان وعلى سوباط القصب الذي ثبتت دعائمه في الماء ،وارعبني اهتزازه من تلاطم الموج بدعامات القصب النحيفة حيث لم انم ليلتها فيما وفي منتصف الليل ايقضنا نواح عال لمراة في .كان مضيفي وأولاده يغطون في نوم هادئ ولا يهتمون لأي شيء جبيشة أخرى فهرع إليها الجميع وكنت معهم ،لنجد رجلا كبيرا توسط فراشا من القصب والقش وضع عليه أزار مطرز بألوان قاتمة ، فتركت انشداد الآخرين وجلوسهم حول الرجل المسجى وقد أضيء المكان بنيران حطب أشعلته المرأة لتنبئ البيوت البعيدة التي يفصلها عن بعضها مساحات من الماء بأن حادثا جللا قد حل في بيتها ، فبدأت القوارب والمشاحيف تتوافد مسرعة وكل مشحوفاً يحمل مشعلا من النار لتحاشي القصب الكثيف والممرات المائية المتعرجة التي قد تفضي في الليل الى أمكنة مخيفة وغامضة كالتي تشابه ما في تل حفيظ الذي يعتقد أهل .الأهوار إن أرواحا تسكنه وتحفظ كنوزه حيث يعتقد أن فيه كنزا لملك قديم

الفصل السابع
مدينة أور ..بنت الأهوار والقصب والحضارة ..

((كان وولي ينظر إلى مدينة أور بوجل وخوف . فهي من اللائي حصلن على ذكر في التوراة كونها المدينة التي ولد فيها إبراهيم وأبوه تارح، وظل وولي طوال سني التنقيب في أور يشتغل هاجس أن يجد في لوح أو أثر أو رابط مادي أو حتى إلى إشارة تثبت وجود النبي في المكان ، ويبدو انه لم يحصل على هذه الأشارة فراح يؤمن بفرضية

إن النبي غادر المدينة مبكرا ليبدأ رحلته إلى الشمال..))

السير ماكس مالوان

كان اورتو حيكال أخ أور ـ نمو مؤسس سلالة أور الثالثة (الثالثة لان أور قد أدرجت للمرة الثالثة في قائمة)) ملوك السومريين). تحت حكم اور نمو وأسلافه شولكي، آمار سوينا، شو- سن، و أبي – سن، استمرت هذه السلالة لقرن (2112 – 2004ق .م). كان اورنمو الحاكم الأول لمدينة أور تحت حكم الملك اوتو حيكال. أما كيف أصبح ملكا فهذا غير معروف، ولكن قد تكون هناك متلازمات بين بروزه ووظيفة إشبي- ايرا من مملكة أسن او حتى بروز سرجون. بإزالة دولة لكش، تسبب اورنمو في نمو التجارة الخارجية من (دلمون، وماغان و ميلوهة) لتصب في اور. وكدليل اللقب الملكي الجديد الذي كان أول من حمله (هو ملك سومر وأكد) فهو من بنى دولة شملت على الأقل الجزء الجنوبي لبلاد مابين النهرين. وكغيره من الحكام العظام، فقد بنى الكثير، بضمنها زقورات أور واوروك المثيرة للدهشة والتي أخذت أبعادها النهائية خلال حكمه. أعطى علماء الآثار اسم شريعة اورنمو على الأثر الأدبي والذي يعتبر أقدم مكتشف معروف للآثار الأدبية يمتد من شريعة لبت عشتار المكتوبة بالسومرية وحتى شريعة حمورابي..))

IRAQ HOW التعريف العربي لمدينة أور في صفحة

يوم أحترقت أور من ويلات حظها العاثر مع التاريخ ، مطرت سماءَ الجنوب سبعة أيام بليالها ، وقيلَ أن القمر الذي كان يحرسُ أعيادها الموسمية بغبطةِ قيثارات الموسيقى ، حجبَ ضوءهُ عن الأرض ثلاثينَ ليلة ، وأن جميع الآلهة أعلنت أضراباً عاماً ، وبالتالي المعابد من بكين الى لكش أغلقت أبوابها حزناً على مدينة أحرقها غرامها للورد والقمح وجناح البلبل. ومهما يكن فإن المدينة الولود ظلت حية وخالدة وأرخت لأزمنتها تواريخَ مهمة لصليل السيوف وحفيف سعف النخيل ورئة الغبار الذي كلما رفع منه قنطار بواسطة معول المنقب ظهرت لنا دمية من فخار أو قرط ذهب أو لوح دون عليه ثملٌ سومري حكاية الشعر من مخاض الحرف وحتى شيخوخة الأمير.
كانت أور ، الزمن الذي لايباع في نخاسة الهذيان ، معه يكتشف الملك لحظة الخجل الذي تسكنه وقت سرير الألفة مع واحدة تعرف كيف تحول الغنج الى دنيا من الخمر والهذيان ، ومعه أيضا يحس الجنود بأن موت الوغى يمنح التفرد رؤية لما نكون عنده في الحياة الأخرى ، فليس للسرمدية بابٌ غير باب أور ، ولهذا كان الجنود يقفون عند حافات الرماح وينشدون لحدائق الامنية التي تسقى بدماء عشقهم لهاجس المدينة وصيرورتها وضرورة أن تكون واحدة من صناع صدور الأوسمة ، لأنها مدينة للمحاكاة العميقة وليست مدينة لملح المطابخ وطناجر العوانس والمهن الرديئة. ولهذا كانت الآلهة لاتحس بطعم الربيع ومجالس الأنس والورد وتبادل الأنخاب إلا فوق زقورتها في ليالٍ وصفتها الأساطير والملاحم إنها قد تدوم الف عام دون أن يحس المنتشي بخمرة قبلتها الفاتنة أنه قضى ليلة واحدة فقط ، فالمدينة تأخذك الى نشوة ما تريده هي لا لما تريدهُ أنت ، وعليه فإن الخضوع لسحرها هاجس لا مفر منه لأنها ساحرة ، والساحرة هي من تعذب عشاقها بقساوة الشعر والخمر وحمرة القبلات ، كالذي فعلته بغي الجسد مع أنكيدو لتكسبهُ وتعيد أليه انسانيته الجديدة بعد حياة التوحش والبراري ومصاحبة الضباع .هذا الفاتنة التي تعلم زائرها فتنة التشهي بين أطلال لم يبق منها شيء سوى أضرحة التواريخ المنهوبة كانت في يوم ما مكانا عاما تستريح فيه دموع الفقراء وطقوس الكهنة وخزائن الملوك ، وبرغم أن كل تلك الاشياء المضيئة نهبت في صناديق الشحن الأستعماري المفوض بسلب عذرية المدينة من صلاحيات بنود ذكرت في معاهدة سايكس ـ بيكو لتكتب المس (بيل) ، وهي التي كوفئت لخدماتها الأستخباراتية في العراق لتصبح مسؤولة عن الآثار العراقية في عشرينات القرن الماضي : إن ما اكتشفه (ليوناردو وولي) ، في اور يساوي قيمة ماعلى التاج البريطاني من جواهر بالآف المرات.
والحقيقة وولي أنه اكتشف الحياة البكر التي كانت تهنأ بعذريتها وخصوبتها ومطلقها الشهي عندما كان الأنسان يشعر بالرضا حين تسلبه الالهة نسمة الهواء او تمنحه طعنة السيف في معركة الشرف فقد كان يعلم ان دلمون بفردوسها البهي تنتظره هناك ،وسوف لن يتناول رغيف الشعير وقدح اللبن في فطور صباحات الجنة بل سيكون العسل ولحوم الثيران واللبن الرائب والحورية العارية هو ما سيجده على مائدة الافطار كل صباح ، ولهذا كانت اساطير المدينة وخيالها يركن الى هذه الرؤية وفيها تصاعد الاداء الروحي للمدينة وبسبب كل هذا كان ملوكها يمتهنون حرفة كتابة الشعر والتأليف الموسيقي وصنع الحكايات التي تجعل ليل مواطنيهم عامرا ببهجة التمني والرضا والاستماتة في الدفاع عن حدود السلالة. ففي ذلك الزمن كان عشق المدن قد يفوق عشق النساء فتنحدر

من تحت أجفان الليل حكايات لاتنتهي عن بلد صنع المأثرة في اعمق معنى ، ومنها اطلقت للبشرية شمعة الضوء الوحدانية عندما احتضنت صرخة الولادة التي اطلقها فم ابراهيم الطفل يوم ولد في بيت اوري ولم يلتفت بأجفانه صوب دمى الالهة التي كانت تملأ غرف بيوت المدينة ، بل كانت رؤياه شاخصة الى السماء هناك الاله الواحد والرب العظيم وهو قد لايشبه تلك الآلهة التي ظلت تنسج من خلال نظرتها صورة ملونة للعالم الذي تعاشره من خلال عربات قوافل التجارة والقماش واللازورد الذي كان يأتي اليها من الهند وأرمينيا وكل حاضرة كانت تعيش عندما كان يعيش على الارض مجد اور المقدسة.
مدثرة بالشعر وبالطين وبالجرح.وكل بلاء يصيب فؤادها يمنحها قدرة المطاولة وصناعة سحر الفناجين ، فيقرأ دمع العين لها اساطير من اختارتهم المنافي شعراء لها وعلماء وفنانين كبار ، فقد كان الحلم الأوري ماركة مسجلة ، وكل من يحمله قطار اور القديم يأتي ومعه شذا الف مسلة والف قصيدة والف نظرة ساحرة ، حتى قيل من غبار أور يصنع الهيل ، ومن فخارها تصنع مطارح الهوى، فمدامها مثل مدام دمعة العنب ، ثمالة البكاء هو كل ماتجده ، والبكاء على زقورتها يعني سلمة ثانية الى طيف القمر الجالس في مخدع الشوق يُحصي اعداد عذراوات المدينة ويحتار لأي واحدة يكون هواه.
مدينة للقمح ، وللرمح ، ولقرط الأميرة عندما يتدلى من مسامع القيثارة وهي تنشد اشواق النخل وعذاب الخل وخلود الحلم القائل :ليس العيون من تنفي العشاق الى فيافي الحزن ، بل المدن عندما نعشقها دون ان تعلم. وما أكثر عشاق اور ، ما اغربهم ، بواسل كتروس حروب الآلهة ، لايرهبهم عطش قيظ صيف ولا خرير مطر ثقوب سقوف الطين، يعطون للريح وجوههم ليدخلوها ضيفة في حدقات العيون وليكتشفوا منها نظرة الناعس لحلمه والجندي لمعركته والصياد لسمكته والكاهن لمعبده والاله لكأسه النذرية ، فثمالة اور لاتشبهها أي ثمالة اخرى ، فهي تشربها من عطر الفخار ودمعة العاشق وفم النخلة.
تتألف المدينة كما أتخيلها وأنا أتجول بين أطلالها وما تبقى من بيوت وشوارع تمتد بأستقامة خط الشروع السماوي الذي يصعد ويهبط منه نار اله المدينة ، تتكون من أجزاء سكانية متجاوره وبهندسة واحدة ،هذا يعني أن التمايز الطبقي بين سكان المدينة ليس كبيرا، وأغلب البيون بنيت بالطابوق المشوي (الآجر) وعقدت سقوفها بمادة الجص ، وقد استخدم اهل اور مادة القير في البناء كما يظهر اليوم بين طبقات جدران معبد زقورتها الشهيرة التي بناها اورنمو مؤسس مجد سلالة اور الثالثة وقد بناها تقربا من الآلهة ، وعليه فأن الحديث عن المدينة بمنظور اقرب هو حديث عن وقائع تأريخ لم ينتهِ بمجرد إحراق مدينة وأختفائها بين طبقات الأرض بسبب تقادم العصور والممالك ، بل هو حديث الألف الى الياء، حكاية حضارة وهاجس بدء والكشف الأول عن الأشياء الجميلة.

يكتب التأريخ سيرة المدن من خلال ما تعطي من نتاج وأكثره النتاج الفكري فهو الوحيد الذي يصلح ليكون لسان حال ما كان موجوداً ويري الباحث والقارئ الحقيقة كلها ، ومن هذه المدن التي رسمت للتاريخ خطا مضيئا من المعرفة والرقي تأتي مدينة أور ، فعلى بعد 15 كم شمال غربي مدينة الناصرية تبدو أثار أور المطلة على التأريخ من أوله حيث أنشأ السومريون واحدة من أعرق الحضارات ، ولتبدأ أشراقة بدء الوعي والخطوات الأولى صوب نوافذ المعرفة . وليس بعيداً عن أور تقع مدينة أوروك السومرية وفيها وضع الحرف خطوط أشجانه المعرفية وبدأت الأبجدية تنطق أناشيد التودد إلى الآلهة ، ونطقت الذاكرة السومرية تساؤلاتها بحروف مسمارية دونت على لوح الطين خطوطاً متساوية الأتجاهات ومدببة النهايات لتكون اللغة المفهومة الأولى في العالم . وعندما كانت هناك مدينة أوروك التي حكم فيها الملك الأسطوري جلجامش الذي كان يُيَمم إلى أور في مواسم أعيادها الكثيرة ليأخذ من الآلهة النصح والأرشاد كي يبدأ رحلته الأسطورية المعروفة بحثاً عن الحياة الدائمة التي لم يحصل عليها . ومع أوروك كانت هناك مدن سومرية أخرى لها ريادات كونية متعددة كمدينة أريدو التي تبعد عن مدينة أور 15 كيلومتر والتي تفتخر من بين مدن فجر السلالات أن أهلها السومريين أو غيرهم ممن سكن هذه البقاع هم أصحاب حضارة(العبيد) ، الذين أبتنوا أول المعابد قبل أن تعرفها الحضارات الأخرى للتقرب من السماء ومنادمة الآلهة ، وفي الديانات التوحيدية كانت بيوتا لذكر الله وعبادته والتقرب إلى رحمته الكونية ، ومع أريدو كانت هناك مدن لارسا وتلو ولكش وسنكرة ومدن أخرى أجتمعت في نفس المحيط الحضاري الذي شيدت عليه أور مجدها العظيم . في ظل هذا الأديم الذي تكاملت فيه رؤى الأنسان الأول ، ومع أنتشار السلالات وتعدد أتجاهات الشعوب في لهجات وأمم ، كانت أور سباقة لتكون منشأ كل ماهو طيب ، وكان أهلها يفكرون قبل غيرهم بأسرار الموجودات التي يرونها حولهم حيث كان الخليج قبل مكانه الحالي يلطم بموجه الهادر أسس مدينة أور قبل أن يبتعد عنها ، لتبقى اليوم بعيدة عن النهر بعشرة أميال من جهة الشرق .وبالرغم من هذا كشفت أثريات هذه المدينة قدرة أهلها على شق الأنهر والترع والقنوات لنقرأ فيما تركوه من كشوفات أن التجارة النهرية لهذه المدينة أوصلت سفن السومريين إلى دلمون التي هي اليوم مملكة البحرين وكانت تعتبر قديماً الجنة المفترضة للخلود السومري ، وكانت

لأور أيضاً معاملات مع (مكان) التي هي اليوم سلطنة عمان ومع بلاد الهند وكانت الأحجار الكريمة تجلب من مناجم (باداكشان) في أفغانستان ، والفخار المميز من كرمان وسط أيران ، ويقال أن تجارة هذه المدينة أمتدت شمالاً حتى أرمينيا في أسيا الوسطى . غير أن أهم مايميز المدينة أرتباطها بالرؤى التوراتية الأولى عندما أعتقد منقبها الأول والذي أكتشف أغلب تراث المدينة وأهمها كنوز مقبرة أور الملكية التي تعود الى ملوك وأمراء سلالة أور الثالثة العلامة البريطاني (ليوناردو وولي) الذي سحره الأعتقاد في بدء التنقيبات وكما جاء في مذكرات من رافقه في رحلة التنقيب مساعداً وهو العالم الأثاري (ماكس مالوان) زوج الروائية الأنكليزية الشهيرة (آجاثا كرستي) قوله في الصفحة 36 من المذكرات مانصه : (كانت المغريات التي أجتذبت وولي للعودة الى أور في ذلك هائلة ، لأنها كانت مدينة قديمة مبجلة أرتبطت أرتباطاً وثيقاً بالعهد القديم ، وكان مايزال هناك عدد كبير من قراء الكتاب المقدس .لقد جعلت التنقيبات رحلة (تارح) أبي أبراهيم يسيرة الفهم لأن حران مثل أور كانت مركزاً لعبادة القمر . وكان وولي يأمل دائما في أن يكتشف بعض الأشارات إلى أبراهيم ، ورغم أن أسمه لم يظهر أبداً في سجل الألواح المسمارية ، إلا أنه أفلح في أعادة تكوين خلفية الوطن الأصلي لنبي العهد القديم هذا قبل هجرته من سومر التي سميت بلاد بابل فيما بعد إلى فلسطين .) والأنتساب الأبراهيمي إلى أور تؤكده حقائق تأريخية عديدة غير ذلك الأثر الذي يبعد عن قاعدة الزقورة بحوالي 300 متر ويقال أنه البيت الذي ولد فيه أبراهيم الخليل { ع } والذي ظل مهملاً الى أن فكر قداسة بابا الفاتيكان في بدء رحلة كونية بمناسبة الألفية الثالثة وفاءً من قداسته للدور الريادي الذي لعبته هذه المدينة والتي عانت من أهمال مقصود عبر حقب عديدة من دولة العراق الحديثة منذ أن سمح للبعثات الأثرية بنبش أرض أور وسرقة كل كنوزها الأثرية التي تعرض اليوم في متاحف أوربا وأمريكا . لكن خدع السياسة وأشتراطات البعض الدعائية لتسييس هذه الرحلة منعت البابا من المجيء . ويبدو أن النبي الكريم عاش في أور ردحاً من الزمن أكدت انتماءه إلى هذه الأرض ، ماحقاً بذلك كل الأدعاءات القائلة كاليهودية بأنتساب إبراهيم أليها كما ورد في سورة آل عمران من الذكر الحكيم (ماكان إبراهيم يهودياً) وعندما جاهر بالدعوة كانت أور موطنها الأول ، وهذا ماتؤكده الآية الكريمة من سورة الأنبياء ((ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * أذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا اباءنا لها عابدين)) ويبدو أن الكثير من أبناء أور قد آمنوا بأبراهيم { ع } وكانوا معه في رحلته الإيمانية التي امتدت من أور إلى حران ومصر وفلسطين حتى الجزيرة العربية حيث أمر ببناء الكعبة الشريفة ثم العودة الى أرض فلسطين حيث يلبي نداء خالقه ويتوفى كما ورد في الأصحاح الخامس والعشرين ـ تكوين .من أول الآية السابعة الى آخر الآية العاشرة من أن النبي أبراهيم حين توفي دفنه ولداه أسحق وأسماعيل في مغارة المكيفلة في حقل غفرون بن صرصر الحثي والتي دفنت فيها زوجه ساره من قبله ، وهو نفس مقام الخليل في حبرون والذي كان في الأصل أسمه قرية أربع والتي هي اليوم مدينة الخليل التي تصمد بكل جبروت المؤمن ضد القساوة الأسرائيلية ، وهم بذلك يبتعدون ضد قيم التوراة الأولى التي دعتهم بأسم الرب وقالت لأبراهيم (إنطلق من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك الى الأرض التي أريك* وأنا أجعلك أمة كبيرة وأباركك وأعظم أسمك وتكون بركة.)

لقد أمتزجت الأساطير بوقائع الألواح . كل واحد من أمراء أور وملوكها كان يتحدث عن المدينة بطريقته الخاصة . ولكن أور ـ نمو أمير البناء والعمران والتي أظهرت لنا دلائل التنقيب صوره وتماثيله وهو يحمل { طاسة } البناء على رأسه في عزم منه على أتمام بناء الزقورة التي لم تزل الى اليوم شامخة في ذات المكان الذي بنيت فيه ، وهي أول بناء شامخ في تأريخ الحضارات بني لقصد تقرب الأنسان من الآلهة ، وقد تميزت بهندستها الرائعة وسلالمها العالية وأجرها الأحمر المفخور والذي يرجع تأريخه الى أكثر من 5000 عام وكان أرتفاعها الأصلي يبلغ 70 قدما ولها ثلاث سلالم كل سلّم 100 درجة وكانت كل آجرة قد ختمت بختم الملك السومري أور-نمو الذي كان يحمل أسمه.

كانت أور واحدة من أكبر الحواضر البشرية في ذلك الوقت . وإذا أردنا أن نحدث القرائن بين وجودها وطبيعة الخلق الذي أبتدأه القدير العزيز بآدم{ ع } ، تكون من بين المدن التي تفتخر بأنتمائها التأريخي . لهذا يحق لنا أن نقول عن أور إنها واحدة من مدن بدايات التبشير الأول . ويبدو إن السير الحضاري لوجود المدينة مرهون بالأرادة السياسية لملوكها الذين عاشوا صراعات لاتنتهي مع السلالات المجاورة والممالك الأقليمية حتى دفعت ثمن نهاية ملكها الى الأبد في معركتها الأخيرة مع الحياة عندما غزتها مملكة عيلام التي تجاور مملكة سومر وعاصمتها أور من الشرق والجنوب وأدى ذلك إلى إحراق المدينة عن بكرة أبيها وأنتحار ملكها المسمى أبي ـ سين ونقل إلهها { سين } إله القمر ليعبد هناك.

ترتبط مدينة أور بهاجس حضاري متقدم هو هاجس الموسيقى ، فقد كشفت تنقيبات وولي في مقبرة أور المقدسة أقدم الآلات الموسيقية وأهمها قيثارة الملكة السومرية بو ـ آبي والتي تسمى خطأ الملكة { شبعاد }، وهي جزء من مقتنيات كثيرة عثر عليها في الأقبية الملكية التي كان يمارس فيها نمط خاص من الشعائر الجنائزية في أعتقاد أهل

أور خاصة والسومريين عامة أن الملك عندما يموت فإن حياة في ذات الرفاهية تنتظره فكان عليه أن يصحب معه الى قبو موته خدمه وحشمه والكثير من المقربين إليه وهم أحياء وكانوا يصطحبون معهم القيثارات لتسلية الملك في عالمه الآخر ، وكان وولي قد وجد هذه القيثارات في تلك الأقبية وهي مطعمة باللازورد والأحجار الكريمة الأخرى وقد سماها خطأ (الراية الملكية) ، ولم تكن هي سوى صندوق موسيقي للقيثارة. ويمثل هذا الوصف المهيب الذي ذكره مالوان في مذكراته روعة ما وصف به هذا الكشف الأثري عندما ذكر في المذكرات النص التالي :(كان مشهد المقبرة الملكية رائعاً عندما كنا نعمل جميعاً ، وأذكر أن أحد القبور الملكية ، الذي ضم ما لا يقل عن 74 شخصاً دفنوا أحياء في قاع المهوى الملكي العميق ، بدأ عندما كشفنا سجادة ذهبية اللون مزينة بأغطية الرأس التي عزفت Harps and lyres لسيدات البلاط ، متخذة شكل أوراق الزان وعليها آلات القيثار والقيثارات).

الترنيمة الجنائزية الى النهاية

لكن أهم علاقة تربط أور بالموسيقى هو أنها حكمت ل48 عاما من قبل الملك شولكي أبن الملك أور ـ نمو وكان هذا الملك الموسيقار يعزف على ثماني آلات من بينها القيثارة ذات الثلاثين وتراً وتحمل أسم يرتبط بالمدينة وهو أور ـ زبابا . وكانت أور واحدة من أقدم مدن العالم التي أهتمت بتأسيس معاهد الموسيقى وكانت تسمى في ذلك الحين من جامع ليبيج في بلجيكا يؤيد { Duchesne Gailemin} بيوت الموسيقى وما ذكرته الدكتورة دشس جيلمن ذلك عندما ذكرت :{ كان الموسيقيون فئة حرفية مهمة في وادي الرافدين ، وكان التلميذ غير الموسيقي موضع أزدراء زملائه } لهذا أدركت أور أن الرؤية القدرية للموسيقى تمثل حاجة البدء ليكون ، فكانت أ ور تستحظر أحلامها بالموسيقى مثلما يستحضر الكهنة ألهتهم المميزين.

كانت نهاية مدينة اور تمثل واحدة من تراجيديات نهاية المدن فبعد ان احرقت اور وفق الحادثة التاريخية أدناه لم تقم للمدينة قائمة ومعها ذاب واندثر واحد من اعرق الشعوب الحضارية وهو الشعب السومري)) إن سقوط أور الثالثة هو حدث في تاريخ بلاد مابين النهرين يمكن ان يتابع بتفصيل اكبر من بقية المراحل من ذلك التاريخ، والفضل للمصادر مثل المراسلات الملكية، فالمرثيتان عن دمار أور وسومر، والارشيف من اسين الذي يصور كيف ان إشبي-ايرا، كمغتصب وكملك أسين، قضى على مليكه في اور. ان ابي-سن كان قد شن حربا على عيلام حين تقدم المنافس الطوح بشخص اشبي-ايرا من دولة ماري، من المحتمل كان جنرالا او موظفا كبيرا. من خلال التركيز على الخطر العظيم الآتي من العموريين، عمل اشبي-ايرا على اجبار الملك على ان يعهد له بحماية المدن المجاورة لإسن ونيبور. وقد جاء طلب اشبي – ايرا أقرب ما يكون إلى الابتزاز، وبينت مراسلاته مهارته في التعامل مع العموريين ومع الأفراد من الإنسي، حتى إن بعضهم التحق به وصار الى جانبه. واستغل اشبي – ايرا أيضا الاكتئاب الذي كان يعاني منه الملك بسبب إن الاله انليل " كرهه"، تعبير قد يراد به الفال السيئ نتيجة الاختبار من القرابين ، والتي استند اليها الكثير من الحكام في القيام باعمالهم(او تجنب القيام بتلك الاعمال حسب الحالة). قام اشبي – ايرا بتحصين إسين و في السنة العاشرة من حكم إبي – سن، بدا باستخدام معادلته الخاصة بالتقويم في المعاملات، وتصرف بشكل يماثل التخلي عن الإخلاص. وظن اشبي – ايرا بانه الشخص المفضل لدى الاله انليل، وزاد هذا الظن من خلال حكمه لنيبور، حيث معبد الاله. وأخيرا اعلن نفسه السيد المطلق على كل جنوب بلاد مابين النهرين، وبضمنها اور..

وحيث قوى اشبي – ايرا عن قصد ممتلكاته ، استمر أبي – سن بالحكم على ارض استمرت تتقلص لأربعة عشر عاما أخرى. ولقد جاءت نهاية اور نتيجة سلسلة من المحن: تفشي المجاعة، وان أور حوصرت واحتلت ودمرت من قبل العيلاميين الغزاة وحلفائهم من القبائل الايرانية. ولقد اقتيد ابي – سن أسيراً ولم يسمع عنه بعد ذلك وفي روايات أخرى قيل انه انتحر. وتسجل المراثي بأسلوب حزين النهاية المؤلمة لأور، والكارثة التي حلت بسبب حنق وغضب الإله انليل..

اليوم أور ترنو إلى من يلتفت أليها بعد كل هذا الأهمال المتعمد وهي تنتظر يداً خيرة لتقيم على ترابها المقدس أحتفاءً حضارياً كل عام ، يستعيد فيه المحتفون تلك القيم العظيمة التي منحت البشرية إضاءات النور الأول الى مدرك الوعي وكانت سباقة في كل شيء ، وهذا يتطلب جهداً عالمياً خاصاً تشارك فيه كل المنظمات الوطنية والدولية ، وأهمها وزارة الثقافة العراقية ومنظمة اليونسكو التي تعنى بتراث الشعوب والحفاظ عليه ، وسيكون على علماء الأثار والمعرفيات الفكرية الأخرى أن يأتوا الى هنا من شتى أنحاء العالم ، لتقيم لهم أور كرنفالاً للثقافة والفن وكل الأبداعات الأنسانية التي تسهم في أرساء السلام والعدل بين شعوب الأرض كافة مادامت هي البدء . وأن يعتنى بالمكان جيداً أذ لا تحوي المدينة اليوم أي مرفق سياحي . ورغم أنها أستقبلت منذ بدء الألفية الثالثة وحتى أطلاق صافرة الحرب الأخيرة آلاف الحجيج الأوربيين ، الذين فرض عليهم أن تكون زيارتهم لأور يوماً واحداً لعدم وجود أماكن مبيت لائقة ومرافق خدمية . لهذا فيمكن للمكان أن يكون منطقة أستثمار جيدة تعود بالفائدة إلى أقتصاد البلد والمدينة الشيء الكثير...فحتماً هذه الأرض تستحق لتكون ملتقى لثقافات الأرض كلها..

وعليه فأن مدينة مثل مدينة اور حملت عراقة المكان والأثر ، وذكرت على أنها مهدا للكثير من النبوءات والملاحم فأن احياءها يتطلب جهداً اممياً فعالاً ، وثمة افكار كثيرة لدى ابنائها من ساكنيها أو الذين اغتربوا بفعل قسوة السياسة والقهر ولكن لديهم أفكاراً محددة لتطوير واقع المدينة وتخليصها مما يحيط بها ، ويذكر أن مدينة اور كانت اول مدينة تشغل بال منظمة كتاب بلا حدود في مشروعها العالمي المعنون (الحفاظ على المدن الأثرية) ، حيث صُنفت كمدينة معرضة الى التدمير وتلف أثارها ، وكان لصاحب المقال نداءٌ في هذا الأتجاه عُد أول نداء ملبياً لمنطوق بيان المنظمة وحملتها وكان بعنوان (أور دمعة بمعطف جندي).
يعرف الزمن جيدا أن أور هي مشكاة الحرف الذي يفكر بقلبه . مدينة تتسور بالرؤى الخضر فتعطي للمكان شيئا من رعشة ذاكرة التلقي من أن الصوت والنغم المتشكل في القيثارة السومرية

يوحي لنا بأن السامع والمسموع واقعان تحت تأثير ميتافيزيقيا التخيل وفي قلب مجرة أتت بأولئك الأقوام من بعيد لامنظور كي يسكنوا الجنوب العراقي ويصنعوا الحلم بحداثة اجمل ألف مرة مما تصنعه الأغاني المضغوطة بنقاوة . لا تضاهى في قرص ليزري
كانت أور معطفا لزمن سرمدي . مدينة تتشكل في بيئتها كل أشكال الحياة . الشعر الطاغوت العبادة الطينية قصائد الحب مراسيم دفن الأحياء وقراءة ضوء النجوم بأرقام العد العشري ولهذا فهي في منظور الحلم مدينة قائمة ودائمة أو هكذا يحسها ذهني وأنا أقيم كوخي على بعد فراسخ قليلة من تلالها الملتحية بالصمت وهدير الطائرات وكشوفات المقاولين وهم يتحدثون بسرية مبعثرة عن مكان لمدارج الطائرات وفنادق فارهة وشوارع تستقبل بأكثر من ممر ضيوف الحاضرة الفاتيكانية وحجاج قد يأتون من بروكسل ليزوروا بيت النبي إبراهيم ع اعتمادا على ما . نطقته التوراة ببعثته من اور الكلدان
. أفكر بوضع المدينة الأثرية فأجد نفسي كمن لاحول ولا قوة لديه إزاء الرغبة بالتعامل مع المكان
لاتعني الثقافة في مكان محتل أنها سلطة لفرض هاجس ما بل تكاد تكون صوتا يزحف إلى مساحات التذكير
. والموعظة وتدوين اليوم على أساس إن التفاصيل ستبقى إلى ذلك الغد الذي قد نعرف فيه ما حدث بالضبط
كان أندريه مالرو صاحب رواية الأمل يقول : كنت عندما أرى معطفا ألمانيا يرتدي برد باريس أتوقف عن الكتابة شهرا كاملاً..!

هاجس كهذا قد يختلف هنا بحكم ضرورات عهود الطواغيت التي ظلت أور تعاني من مشقة ضيق بدلات حروبهم حد الذي صنعت لشبابها ذاكرة منافي متعددة وقطارات سافروا بها وهم يبصقون الخجل قصائدَ وأمنية للعودة ثانية وارتداء معاطف الحلم المصنوعة بمهارة خياطي أزمنتها دانجو أدامو ، الملك الموسيقار شولكي ، رشيد مجيد ، عبد القادر الناصري ، قيس لفته مراد ، داخل حسن ، حضيري أبو عزيز ..فائق حسين ، صلاح نيازي ، كاظم جهاد ، عقيل علي ، فاطمة المحسن ، بلقيس نعمة العزيز ، جميل حيدر .. هم كثر لا تسعهم أكبر سلال الفاكهة ورغم هذا الأحياء والموات منهم يتطلعون حد هذه اللحظة لخلق مودة الرؤى الجديدة لمدينة تربوا بها وعاشوا على تربها وشربوا الشاي في حاناتها وصلوا في معابدها.
مدينة تقف عند ذاكرة الفعل الشعري لتصنع خيالها بتورية التأليف وحسن الخاطرة وجزالة الحكمة.
عاشت أور عهود الأزل بذاكرة عاطفية وبنت رؤى التفكير الأول بمشاعر تختلط فيها الكثير من حداثة تفكير اليوم الشعرية والعسكرة وسن القانون وشق ترع الري وبناء القصور والمعابد وتزيين أعناق الأميرات بالحلي المحفورة بدقة وجمال من أثمن الأحجار الكريمة فيما بقي هاجس الحرب وروح السلطة قمة الهرم في تفكير مدينة أرادت أن تصل بخيالها إلى كل الدنيا وتؤلف عهدا حداثويا للشعر والهندسة والموسيقى وما يخلفه الطين لحظة تآلف مع ذاكرة العاشق.
المدينة اليوم هي أطلال أمس ذهب بعيداً . لم تعد سوى تلال تتبعثر فيها خطوات أغنام الرعاة وجزمات جنود متعددي الجنسيات فيما أفرغت يد السراق ورجالات التنقيب الأثري أقبية المقبرة من كنوزها التي عدت يوم كشف عنها أول مرة مطلع عشرينات القرن الماضي من قبل ليوناردو وولي واحدة من أجمل الكنوز الإنسانية وأقدمها صناعة وإبداعا ومنها قيثارة أور ورياتها والخوذ الملكية وصناديق الموسيقى والرفات المنتظم لضحايا طقوس الموت السومري حيث كان الملك في رحلة الموت يجلب معه كل حاشيته لتؤنسه في ظلمة العالم الآخر وكان الجميع يجلبون معهم ما غلا ثمنه وخف وزنه وتلك الحاجات الخاصة العائدة لأجدادنا من سكنة المدينة هي اليوم ملكا لمتاحف الغرب فيما المكان الأثري لا يحوي سوى على طلل البيوت الغابرة وأسس المدينة القديمة وأقبية صارت ملاذا للهواء الرطب وجحورا لبنات آوى!

حال بائس لمدينة كانت في يوم ما تقطر شعرا وفنا وأساطيرَ
مدينة لم يبق منها سوى ذاكرة التراب وبيتٌ سوروه وبنوه دون دراية وعجالة وأفترض أن في واحد من غرفه ولد

النبي إبراهيم الخليل ع حيث يعتقد بما شاء الله أنه ولد هنا وفي الوهاد الفسيحة للمدينة العظمية حيث كان والده النجار يسكن فيها بدأت تباشير النبوة تسقط أشواق التوحيد ومتهدجات الروح في رغبة فصل الكون عن دمى الطين وإرجاعه إلى ملك التوحيد الأزلي وروح العقل الإله الواحد . غير إن المكان لم يستغل جيدا في جعله آصرة سلام لنبي كان همه أن يشعل شمعة السلام عبر رحلة أخذت من أحلامه أن صنع بها رؤى التأسيس لوحدانية الملة والدين . الكثير أرادوا أن يحققوا شيئا من المكان .أن يجعلوا مكان المهد ورابية التصور الأولى التي انتبه فيها النبي إلى سر الخليقة مكانا للتسامح والحوار الحضاري ونبذ الإرهاب والعنف وحتى البابا الراحل في مطلع الألفية الثالثة أراد من هكذا مكان نقطة بدء رحلة إيمانية تبدا من اور وتنتهي بأورشليم القدس لتكون رسالة معبرة عن روح اللقاء الوحداني والحضاري بين شعوب وملل الأرض كلها ولكن في كل مرة السياسة تفسد أحلام القديسين وترمي الأمر في الزاوية الضيقة فلا يتحقق وبذلك فقدت اور بفضل التسييس وجرَ الأمر إلى ساحة الأعلام وتصفية الحسابات يوما مشهودا يعيد الانتباه إلى هذه المدينة كي تفكر المؤسسات الأممية ومنها اليونسكو بتحصين المكان وأعادة مشاريع التنقيب فيه وتحويله إلى معلم أثري يخضع للحماية الدولية كونه إرثا إنسانيا ومكاناً ولدت فيه ذاكرة اكثر من نبي نوح وإبراهيم وأيوب وحتى لوط القريب إلى إبراهيم كانت اور ساحة لبعض رؤاه الوحدانية.
أن هذا الأمر يتطلب جهدا خاصا وتأسيس منظمة مجتمع مدني تعنى بالمكان وذاكرته ، وأن يتم الاتصال بالمنظمة العالمية (اليونسكو) ، كي يُلفت انتباهها إلى أن أور التي كانت في يوم ما حاضرة الدنيا وصناعة شجنها المعطر بالشعر والموسيقى ، هي اليوم مربضٌ للطائرات والنسيان وأحلام المقاولين بتأسيس مشاريع وهم سريعة من نقود الدول المانحة ولم يكن بين كل هذه المشاريع مشروع يحمي الأثر ويفتش عن حياة مطورة بين تلال الرمل لم تصل أليها بعد يد المنقب والعابثين ، دعوة ترسم رغبة تكوين أثر طيب يسعد ذاكرة الأجيال السومرية التي لازالت تئن من وجع الماضي وتستظل أملاً بالجديد الذي لم يكشف عن عبق حدائقه بعد وقد يتحقق ذلك بدستور فيه فقرات تؤشر إلى رغبة صارمة وحقيقة بحفظ التراث والتنقيب عنه ومعاقبة العابثين وسراق التلول والاطلال من خلال تأسيس جهاز مؤسساتي صارم وعلمي يعنى بهكذا أمكنة ، لأن العبث قد يخلف ما ترك إلينا لنحافظ عليه يخلفه رماد يذري في رياح النسيان والانقراض وقديما قالوا : الشعوب التي لا تمتلك ذاكرة هي شعوب ميتة.
إنها أور التي ترتدي لغاية هذه اللحظة معاطف الجند الغرباء وتنتعل أحذية الرمل المنسي توجه صوتها إلى أهلها في الوطن والمنافي ليتذكروها وليقودوا لأجلها حملة عالمية وليكن عنوانها من اجل أن نعيد إلى أور سحرها السومري . دعوة لإنقاذ مدينة...
وليفكر إنسان غيور ونبيل من أولئك الذين يجدون في حلمه باستعادة ظل الشعر والموسيقى أن يتظافر معنا ويكتب عن تصوره لدعم فكرة مشروعنا الصغير الكبير والتي تكون مدينة الناصرية مكانا لثمرة البدء ، حيث تحتاج المدينة إلى حملة تضامن ومناشدة وتدخلات ومنظمات إنسانية داعمة لتطوير وإحياء تراث الشعوب كي نعيد للمكان رغبته بأن يبقى مصطبة لاستراحة الآلهة ومكاناً ساحراً لإنشاد الشعر واقامة مواسم الزواج والحصاد وعبادة الرب الواحد...